المغاربية

موريتانيا

مكتبة الدبنجة بن معاوية بعلب آدرس

الشيخ محمد اليدالي

نصوص من التاريخ الموريتاني

شيم الزوايا

تقديم وتحقيق

محمذن ولد باباه

الشيخ محمد اليدالي : ترجمته

ولد محمد اليدالي عام « إمجيج »[2]، عند بئر تِنْدَكْسَمْ الموافق لسنة 1096هـ/1685م وهو محمد بن المختار بن محمد ساعيد بن المختار بن

---

(2) عام امجيج ، هكذا جرت العادة في البلاد الشنجيطية منذ أقدم العصور بالتأريخ لكل أمر جليل كما كان الحال في الجاهلية ، أرّخوا بالوقائع الحربية مثل (عام «أم إغبانه» الموافق 1695/1107 ، وأرّخوا بالكوارث الطبيعية من أوبئة وشدائد ، مثل عام مرض الهواء الأصفر، أو مرض الهيضة (الكوليرا) الموافق 1285هـ/1868م كما أرّخوا بوفيات الأعيان مثل عام غدرة الأمير محمد الحبيب الموافق 1277هـ/1860م. ثم ظهر الاهتمام منذ عهد متأخر بضبط الوقائع بصفة أدق عن طريق الرمز إليها بالأحرف بما في ذلك من أسباب الالتباس ، بدأ العمل بهذا النمط من ضبط تواريخ الوقائع منذ عهد محمد بن خالُنا ، تلميذ الشيخ اليدالي واطرد من بعده ، قال محمد بن خالنا مؤرخا لبداية شربه ونهايتها :

(وقعة شَرْبَبَه بعام «شنه» [1055هـ/1645م] وسلمها وقع عام «شفه» [1085هـ/1674م]

ونسج على منواله كلّ من المؤرّخين من بعده تيسيرًا لحفظ تاريخ تلك الوقائع ، مثل ما فعل محمدن ولد محمد فال مؤرخا لبداية الغزو الفرنسي للبلاد . قال :

(في عام «شاكس» على البيضان [1321/1903] قد طلع الكافر ـــ كَبُلاَنَ)

تطلق على طريقه ضبط الوقائع بالأحرف عبارات عدة منها : (التاريخ الشعري) وحساب الجمل كما يعرف هذا النمط بحساب الأحرف الهجائية المجموعة في : أبجد هوز . ويقال

بما يترتّب على ذلك من أخلاق سامية ، وهو مجتمع تُشمش الذي وصفه لنا في كتاب (شيم الزوايا) وهو مغاير تمامًا للمجتمع الذي زامنه اليدالي ، والذي وصفه بالجهل والحسد وارتكاب الخطيئة وسماجة الأخلاق وضعف الإرادة . وكان اليدالي مغاليًا في تشاؤمه بأبناء زمانه ، من حيث أنه ليس من المعقول إطلاق هذه الأحكام على الكلّ ، يقول : «هذا وإنّي في زمانٍ ملأ الله قلوب أهله من الحسد وغلب عليهم حتّى جرى منهم مجرى الدم من الجسد... كان الناس ورقًا لا شوك فيه و [صاروا] اليوم شوكًا لا ورق فيه [(4)] » .

إذا كان البعض تعرّض لكتبه بالتجريح وآتّهمها أنّها نسخ وتلفيق ، فعليه أن يعرف حقَّ المعرفة أنّ من ألفَّ آستهدف ، والتاريخ هو الحكم في النهاية ، وإذا زهد البعض في علمه وآبتغوا عنه غيره ، فله العزاء بالتّشبث بالمثل : (أزهد الناس في العالم أهله) . وإذا آقتحم الشباب حريم بيته ، فهذا موقف تقرّه الأعراف السائدة في البلد ، وما كان ليثير غائلة الشيخ الوقور ، إلى غير ذلك من الأحداث البسيطة التي أثّرت تأثيرًا سيّئًا في نفس الشيخ اليدالي ، ويبدو أنّها كانت حساسة تنفعل لأبسط الأسباب ، وما ذلك إلاّ مظهر من مظاهر آعتزازه بنفسه وحرصه على كرامته وحسن نيّته بالآخرين ومقته للرذيلة . من خلال هذه الأمثلة يتأكد لنا أنّ حياة اليدالي تتخلّلها تجارب غير سارة ، ولكنّها لا تستحقّ العناية التي أعطاها هو إيّاها . اللهم إلاّ أن يكون من باب ردع المفاسد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى كلّ حال ، عاش اليدالي محترمًا ومحببًا ومكرّمًا في مجتمعه، عزيز الجانب عظيم الجاه ، مقبولاً عند الجميع ، وكيف لا وهو العالم الجليل والوليّ الصالح الذي تحقّق على يده من الكرامات والخوارق ما لا ينكره إلاّ مغال في الإنكار أو معاند زنيم . خصص النابغة الغلاوي (1245/1829) لهذا الجانب من حياة اليدالي كتابه (النجم الثاقب في بعض ما لليدالي من

---

(4) راجعه في مقدمة كتاب (فرائد الفوائد) ص14 من المخطوطة الموجودة في خزانتي .

مناقب) ، يقول في مقدمته : « هذا تعريف العارف بالله خديم رسول الله ﷺ ، القطب الوليّ المجدّد ذي التواليف المفيدة والكرامات العديدة »...[5]

بعد آستعراض وجوه من حياة اليدالي والإلمام بمعالم شخصيته العملاقة ، وكشف الستار عن بعض الملابسات التي آكتنفت حياته ، يمكننا أن نتعرّض لآثاره في شيء من الترتيب والاستيعاب . ومصنّفات اليدالي آختلف في عددها مع أنّها لانتشارها لم يضع منها إلاّ القليل ، وهي أنواع متنوعة ، وذلك أنّه كان كاتبًا موسوعيًّا وأستاذًا يتبع في تواليفه منهجًا تعليميًّا بيداغوجيًّا . وهو حاطب ليل ، شغله الشاغل جمع أكبر قدر من المعلومات وتلفيقها وترتيبها وصهرها في بوتقة المؤلف حتّى تخرج من يده جاهزة متأقلمة يانعة .

1 ـــ **اليدالي الشاعر** ، لليدالي ديوان شعر جمعه وصحّحه أحد طلاب كلية التربية في انواكشوط وهو الأمير بن اكّاه . قدمه سنة 1402هـ/1981م في شكل دراسة جامعية .

وأهمّ أغراض شعره ، شعر المناسبات ـــ الشعر الوجداني ـــ الابتهالات ـــ المديحيات ، تتجلّى شخصية اليدالي الروحانيّة الربانيّة في مدحه للنبيّ ﷺ . ومن أشهر قصائده في هذا المضمار قصيدة (صلاة ربّي) ، حيث يتحوّل فيها إلى رجل أشواق وأذواق وأحوال ربانية ، قصيدته التي نسجها على وزن حساني (وهو الرسم) لا مثيل له في بحور الشعر العربي . كانت هذه القصيدة ومازالت تُحفَّظ للناشئة على سبيل التحريز والتبرّك والتذوّق الفني .

---

(5) راجع مقدمة الكتاب ص(1) من المخطوطة الميكرو فيلم رقم 4932 في قسم الخطوطات بالمكتبة الوطنية الموريتانية .

شرحها اليدالي في كتاب جزيل ، جمع فيه قواعد الشعر ببحوره ومقاييسه وفنونه ومحسّناته ، محدّدا ماهيته في قوله : « فالشعر صناعة لفظية لا تكسب إلّا بالتروّض عليها ، ثمّ هي قريحة فطريّة محكّها الذوق » .

سمّى اليدالي هذا الكتاب (المربي على شرح صلاة ربي) خصص القسط الأوفر منه لعرض صفات الرسول عليه الصلاة والسلام وآياته ومعجزاته .

2 — **اليدالي المتصوّف** ، (خاتمة التصوف) في اعتقاد الخاصة أو خاصة الخاصة ، وشرحه شرحًا مفصّلاً في مجلد كبير ، وألّف في نفس المجال كتاب «إكسير الحياة» في الأعمال الصالحة .

3 — **اليدالي عالم من علماء الكلام** ، ألّف في هذا الفن كتاب « قواعد العقائد » ، وشرحه شرحًا مفيدًا في كتابه (فرائد الفوائد في شرح قواعد العقائد) .

4 — **اليدالي الفقيه** ، له فتاوى ، منها ما هو في باب النوازل ، وشرح باب التركة من كتاب الشيخ خليل على مذهب الإمام مالك ، وله أيضا « رسالة في مسالك العلّة » ، وهو فتوى حول السؤال (هل الشرط يسقط بالنشوز أم لا ؟) ذكر فيها مسالك العلّة .

5 — **اليدالي وعلوم القرآن الكريم** ،له شرح لكتاب الله العزيز سمّاه « (الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز) » في مجلدين كبيرين [6]. وله أيضًا في علوم القرآن نظمه : « (مورد الظمآن فيما حذف رسمًا من القرآن) »

---

(6) ينقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء وجمع في مجلدين كبيرين . تعهده الناس بالاستنساخ حتّى تعدّدت نسخه بحيث لم يعد من مكتبة لها شأن إلاّ وفيها نسخة من الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز ، ولم يقيّض له الله بعد من يطبعه .

6 ـــ اللسانيات ، له كتاب في البيان وفنونه الثلاثة ، وله « الصوارم الهندوانيّة في ردّ شبه الجيم السودانيّة » . وله أيضًا رسالة على « الفرق بين الجمع واسم الجمع وآسم الجنس وعلم الجنس » .

7 ـــ اليدالي عالم من علماء السيرة وأنساب العرب :

ألّف فيها كتابه « الحلّة السيراء في أنساب العرب وسيرة خير الورى » وخصّ نسب الرسول عليه الصلاة والسلام بكتاب منظوم سمّاه (واضح المذاهب في سيرة المختار خير المذاهب») .

8 ـــ اليدالي المؤرخ والمصلح الاجتماعي :

عالج اليدالي أخلاقيات وإيديولوجيات الزوايا في كتابه (شيم الزوايا) في طورها الأمثل والأكمل. وتعرَّض إلى سلوكيات أبناء زمانه معرّضا بها في رسالتيه :

ـــ رسالة النصيحة في الأمر بالمعروف .

ـــ ورسالة اللفعة ، وهي عبارة عن مناظرة أو مشاكسة بينه وبين زميله وآبن شيخه محمد الأمين بن مينحن . آستغلّ اليدالي هذا الموقف لإبداء الكثير من آرائه المتشائمة في أهل زمانه .

ـــ (أمر الولي ناصر الدين) ، تحدّث فيه طويلاً عن الإمام ناصرالدين وكراماته ، وعن إنشاء دولته الإسلامية ، وأشار إلى فتوحاته ، ولكنه آسترسل في تفاصيل حرب شَرْبُبَّه بين حسّان والزوايا . ففصّل وقائعها وأسماء من مات فيها من الأعلام . وبيّن أسبابها ومسبّباتها ، وحلّل تحليلاً وَافيًا أسباب هزيمة الزوايا وآنتصار حسّان عليهم .

تقديرا لمجهود المؤلف وإعجابًا بإرادته الفولاذيّة آستحسنا العودة إلى الوراء بالقارىء ليرى كيف كان اليدالي يؤلف كتبه وهو في خضم من الهموم ، بين حلّ وظعنٍ ، يجمع بالليل وليس له من الضوء إلّا نار الخشب . ويكتب بالنهار وهو في الرحيل. يقول وهو يستسمح القارىء : « فإنّ كلّ

مصنف مع التؤدة وطول الإمعان والتفكّر، قلّ أن ينفكّ عن شيء من ذلك — أي الخطأ — فكيف به مع كثرة العلائق وترادُف العوائق وغيبة الكتب والأشغال القائمة ، وغربة الوطن والأهوال الدائمة ، وضيق الوقت والأعذار الجمة، ودواهي الدهر التي لا ترقب في أسيرها إلاً ولا ذمّةً... قد دام توالي بعوثها كشف الله غمائم غمها وغيوثها ، وأهب علينا ريح النصر رخاءً... وأعاد شدة العيش رخاءً.. » [7] .

ويسترسل اليدالي في شرح الأوضاع التي يمارس فيها التأليف في ظروف عاتية فيقول : « وعذري فيه أنّي جمعته وأنا في تيرس أجوب في أكنافها وأهيم مع أهلها يمنة ويسرة ، في جوفها وأطرافها ... والقلم غير مساعف، والهمّ مبثوث ولاَ مداد إلاّ مداد صبيان المكتب والترثوث ، ولا جمع غالبًا إلاّ بالليل لاستغراق النهار بالترحال الحثيث » [8] .

ونتساءل ، كيف تسنّى لليدالي تأليف هذه الكتب كلّها في حياة كهذه ، والجواب يكمن في صلابة إرادة الرجل ، وقدرته على مجاهدة النفس والتحمّل والإدمان على العمل إلى أن انتقل إلى جوار ربّه سنة 1166هـ/1753م)، وهو يضع اللمسات الأخيرة على كتابه الجليل (الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز) .

---

(7) من مقدمة كتاب فرائد الفوائد ص 11و12 من المخطوطة الموجودة في حوزتي .

(8) من نفس المصدر ص 13 .

النص الأول

كتاب شيم الزوايا

لمؤلفه

محمد بن المختار بن محمد ساعيد

الشيخ اليدالي 1096هـ/1684م ـــ 1166هـ/1752م

« شيم مرت الليالي عليها

والليالي قليلة الإنصاف »

(محمذ بن أحمد بن العاقل 1281هـ 1864م)

كتاب شيم الزوايا
للشيخ محمد اليدالي

« قال الفقير إلى عفو الله تعالى ، محمد بن المختار بن محمد ساعيد ، أسعدنا الله وإيّاه في الدارين بمحمّد ﷺ .

هذا ذكر شيم أسلافنا الشمشويّة [1] المرضيّة عند الله تعالى ، وذكر بدء

---

(1) الشمشوية نسبة إلى « تشمش » وهي اشتقاقا، كلمة صنهاجية «شُشْ» بمعنى الخمسة، ومدلولها الاصطلاحي ، أنّ هذا الاسم يطلق على مجموعة من قبائل القبلة منحدرة من خمسة رجال انطلقوا من « تارُودانت » ، في السوس ، جنوب المغرب ، وأقاموا مدّة في « آدرار » ثمّ خرجوا منه فارّين بدينهم من الفتن ، حتّى نزلوا في أحياء «الجلس» في « تروس » فطاب لهم المقام في هذا الوسط الطيّب فتزوّجوا فيه وأنجبوا الأولاد حتّى بلغ بهم العمران مرحلة كان لا بدّ لهم أن يتميّزوا عن الفصيلة التي آوتهم ، فأسّسوا حلفًا سمّوه حلف « تشمش » في أواخر القرن السابع الهجري ، وانتظم هذا الحلف عند بير « اكِيْت » ، وتعهّدوه بالاجتماع في كلّ سنة ، لإحياء ما تعاقد عليه أجدادهم . (راجعه في الشيم) ، أسّسوا حلفهم على خمسة مبادىء أخلاقية ، منها التمسّك بالقرآن والسنّة ، وصيانة الكرامة ، والاحتراز من كلّ ما ينافي العدالة ، ومكارم الأخلاق .

والرجال الخمسة المنحدرة منهم قبائل تشمش هم :

1 ـــ اتشفغ يدَ ايَال « يعقوب بن إكِدَنُوبك » .

2 ـــ مهنض أمغر « بن عامربل بن علي التونكلي » .

3 ـــ يدَمْسَ بن عامر بن «بهنَة » .

4 ـــ يدَاج إكِدَبُرغه ومعناه : « جدّ علي » قال الناظم :

« يداج بالكسر وشدّ الدال   جدُّ علي والنسبة اليدّالي

أمر تشمش وما تعاقدوا عليه ، وذكر بعض أحوالهم ، رضي الله تعالى عنهم .

1 ـ أخلاق الزوايا

أمّا شيم الزوايا [2] فهي حقيقة التمسّك بسنّة رسول الله ﷺ ، والعضّ

ومنه محمد اليدالي واليداليون التي تطلق على قبيلة « إدوداي » فصيلة محمد اليدالي .

5 ـ أبهضام بن محمد بن يعقوب بن سام . ترك كلّ واحد من هؤلاء الرجال الخمسة خمسة أولاد كوّنوا القبائل الخمسة المعروفة بالأسماء التالية ، حسب آشتقاقها وترتيبها في الجدول السابق « إجاجفغ » أولاد ديمان « إدكبهنّ » و«إدوداي » وبنو يعقوب .

وهذه المجموعة البشرية لهادور تاريخيّ وحضاريّ في البلاد الشنقيطيّة في غاية الأهمية . وسنحاول إبراز ذلك الدور في الدراسة التي نخصّصها(للشيخ اليدالي ووسطه الاجتماعي) .

آشتقّوا من كلمة تشمش مفردات منها شُمشوي نسبة إلى تشمش ، ومعانيها كلّها محمولة على الفضل ومكارم الأخلاق .

(2) الزوايا ، آرتأينا أن نقضي على أسباب الالتباس بين هذا المدلول الذي يطلق على طبقة من طبقات الشعب الموريتاني ، وبين المؤسّسة الدينيّة التي كانت في البداية رباطًا دينيًا ومعقلاً عسكريًا مثل رباط عبد الله بن ياسين الذي آنطلقت منه حركة المرابطين ، والفرق بين الرباط والزاوية ينحصر في التطوّر الذي حدث على الرباط في عصورالانحطاط،حيث تحوّل إلى مشيخة دينيّة يتزعّمها شيخ من مشائخ الطرق الصوفيّة . والزوايا في الاصطلاح الموريتاني مدلول يطلق على مجموعات من القبائل أكثرها من أصل صنهاجيّ ، آنزووا بدينهم بعد آنكسار شوكة دولة المرابطين وآندثارها ، جراء الخلافات القائمة داخل فصائل صنهاجة التي آستغلّها العنصر العربي ، بنو معقل ، فتغلبوا على البلاد وآقتسموها إمارات ومناطق نفوذ .

وهذا المدلول له مرادفات تؤدّي تقريبًا نفس المعنى :الطلبة ، ومفردها الطالب ، ومشتقّة من طلب العلم ، والمرابطون ، ومفردها المرابط وهو أكثر آستعمالا من صيغة الجمع من المرابطة في مخافر حدود الدولة الإسلاميّة للدفاع عنها . وأعمّ هذه الدلالات آستعمالاً هو مدلول « الزوايا » ، والطلبة أكثر ورودًا على ألسنة سكّان شرقيّ البلاد ، وهو ما وراء حدود منطقة القبلة . وهذا المفهوم محمول على الاعتبار الدينيّ والروحيّ في كلّ أرجاء الإقليم ، إلاّ في صيغة التصغير ، وكذلك المرابط . وبمفعول التطوّر أصبحت كلمة الطلبة تطلق على كلّ بيت من الزوايا تفرّد في عصره بالعلم والورع والجاه ، مثل بيت محمد بن المختار بن انتشفغ موسى وبيت أهل متالي .

انقسمت الزوايا بعد تغلّب بني حسّان على البلاد ، وبعد شربيه خاصّة إلى طبقتين ، ومقياس تفاضلهم هو مدى الحظوة عند وجهاء بني حسّان .

ـ فالطبقة الأولى : « زواية الشمس » وهم الذين لا يستظلّون بأحد لما لهم من حرمة وحصانة وآعتبار .

عليهابالنواجذ ، فهذا ما تعاقدوا عليه ، فقد أسّسوا سيرتهم وأحكموها بالشرع ، وتمسّكوا بها حتّى صارت لهم طبعًا وديدنًا ، وكأنّهم فطرهم الله عليها بحيث لا يقدرون على تركها ، وكأنّهم رضعوها من ثدي أمّهاتهم ، ثمّ إنّهم كلّما أحسّوا بعد ذلك بوهن ما تعاقدوا عليه أوّلاً ، جدّدوه ، ويقولون قد آن لنا الانعزال ، أي نعزل عنّا كلّ من لم يكن على سيرتنا ، فيجدّدون ما أسّسته أسلافهم . فكلّ من شذّ عن سوادهم الأعظم ، كانوا عليه يدًا واحدةً كائنًا من كان ، وإن أبى خذلوه وطردوه عنهم ، وتبرؤوا منه ، وعالجوه ليفيء إلى سيرتهم المثلى ... وإن تعذّرت إفاءته تركوه وهجروه . وأسلافنا جعلوا سنّة المصطفى ﷺ ، وسنّة أصحابه عادة آتخذوها دأبًا وديدنًا ، حتّى تربّوا عليها وصارت لهم خلقًا وشيمةً يعرفون بها ، حتّى كأنّها مركوزة في طباع صبيانهم ، فطرهم الله عليها كأنّهم وُلدوا بها ، وكأنّهم رضعوها من ثُدِي أمّهاتهم .

وهذه الشيمة غلب آكتسابها كثير من الناس ، بل كثير من الزوايا مع آغتباطهم لها ، ومحاولتهم لاكتسابها ، وتكلّفهم لاجتلابها ، فهي من الطباع الغريزيّة التي لا تنال بالتخلّق ولا بالتّعليم ولا التكلّف ، [بل] فضل الله يوتيه

ــ الطبقة الثانية « زاوية الظلّ » وهم الذين يستظلّون بغيرهم لضعفهم وخمول ذكرهم .
يقول الشيخ محمد المامي في هذا المضمار مفتخرا بآستقلاليّة تشمش : (من بحر الوافر) :

« فنعمرهـــا مطرقـــة ولسنـــا بعـــروة ظـــل قـــوم آخذينـــا »
« تخبُّ ركابنـــا في كلّ أرض قعودًا فـــي نحـــور الديلمينـــا »

من آشتقاق هذه الدلالة ، العبارات التالية :

زاوي ، نسبة إلى الزوايا ، ومُستزْوٍ ، من باب آستحسان سلوكيّات الزوايا وأخلاقهم ، مبنيّة على المدح والاستحسان .

والتزاويت : أي التخلّق بخُلُق الزوايا ، وهو سلوك مبناه الاستقامة ومكارم الأخلاق .

وهذا المدلول ورد في النصوص في صيغتين ، الزوايا ، والزاوية ، بنفس المعنى ، إلاّ أنّ الدلالة الأخيرة أعمّ ، وللمزيد من التفاصيل عن هذا المدلول ومحامله العميقة ، يُرجع إلى مبحثه في الدراسة العامّة عن « محمد اليدالي ووسطه الاجتماعيّ » .

من يشاء[3] ، وسهَّلها الله تعالى على أسلافنا[4] والحمد لله بلا تعلّم ولا تكلّف ، وبلا حولٍ منهم ولا قوّةٍ .

فعسى الله أن يسهلها لنا من حيث المنّة ، لا من حيث المحنة . فتخلّقوا بأخلاق السلف [...][5] ، وتأدّبوا بآدابهم الشرعيّة ، فأحبّهم الله تعالى ، وحبّبهم إلى الناس ، وأسمع الله تعالى الخلق ذكر المحاسن منهم والمفاخر ، وأطار في الآفاق نشر المفاخر منهم والمآثر .

ميثاق تشمش الاخلاقي : أمّا شيم الزاوية ، فمنها : الصبر بأنواعه ، [6]

---

(3) قرآن كريم : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ سورة الجمعة (62) الآية (4) .

(4) يعني أسلافه من تشمش المذكورين في الهامش السابق (1) .

(5) ما بين المعقوفين [...] زيادة على ما في النصّ المطبوع ، أثبتناها إمّا آضطرارا ليستقيم المبنى والمعنى ، أو آستكمالاً للنصّ بعد مراجعة ما يزيد على عشر نسخ مخطوطة من كلّ من الكتابين : شيم الزوايا « وأمر الولي ناصر الدين » ، ثم عرضنا التصحيحات على أصحاب الخبرة بقصد التصويب والتصحيح ، فأثبتنا ما حصل عليه التواتر .

آعتمدنا أساسًا ثلاث نسخ هي أصحّ ما توصّلنا إلى مطالعته من نصوص الكتاب ، فأشرنا بحرف (أ) إلى النسخة المطبوعة ، وأشرنا بحرف (ب) إلى نسخة محمد سالم بن الحوبي .

كما أشرنا بحرف (ج) إلى نسخة بَاكْيَاه . فما زيد في النصّ المصحّح يشار إليه بأحد الأحرف الثلاثة حسب النسخة المستفاد منها تكملة النصّ النهائيّ .

(6) من أهمّ المقوّمات التي أسّس عليها تشمش خلقهم الصبر بأنواعه وآرتأينا أن نثبت في هذا الهامش تلك الأنواع على تعدّدها وتنوّعها كما وردت مفصّلة في أبيات العلامة محمذن ولد محنض بابه (1319هـ/1901م) حيث يقول [من الخفيف]

« أفضل الصّبر زهدنا في النعيم ... إنّه الصّبر فآغتنمه حميمي
ثمّ صبر على الرزايا آحتسابا ... حين تصلى بآيبات الحميم
ثمّ صبر عن المعاصي آحترامًا ... لحمى الحقّ إنّه ذو حريم
ثمّ صبر على العبادة شكرًا ... للمليك البرّ الرؤوف الرّحيم
وآكظم الغيظ وآحش بادر بفعل ... منك يجري على سبيل الرّحيم »

وهو معنى أدبيّ وأخلاقيّ آستوفى أدباء الأخلاق والتصوّف حقّه من البحث والتفصيل ...

ويقول محمد مولود بن أحمد فال 1323هـ/1905م في « مطهرة القلوب » في التصوف : (الرجز)

ومنه : صبرهم على ما يطرأ على البئر والمراح والمراعي، ممّا يثقل عليهم، وصبرهم على عدم تحمّل الغرامة لحسّان [7] وغيرهم ، وتواطؤهم على

« وحبسك النفس على أحكام | ربّك هو الصّبر ذو المقام
لعلم أنّ الشهوات جنّه | للنار والكره حجاب الجنه
عن المعاصي وعلى البلاء | وفي العبادة وفي النعماء »

(7) حسّان والأصوب ، بنو حسّان ، مجموعات العرب من بني سليم ومعقل ، خصوصًا التي كانت خاتمة تطوّفها من الصعيد المصريّ ، عبر شمال إفريقية ، إلى الصّحراء الغربية حيث طاب لها المقام لملاءمة البيئة ، بشساعتها وانعدام أسباب التقيّد والحرج ، وتوفّر ظروف مناخيّة وصحيّة مواتية لتنمية المواشي ، من خيل وإبل وغنم ...

خرجت قبائل معقل من المغرب في عهد مملكة المرينيّين ، والسلطان يعقوب هو الذي أخرجهم إلى غرب الصّحراء من المغرب ، فمكثوا مدّة طويلة في شمال الصّحراء فيما بين وادنون إلى الساقية الحمراء ، ثم واد الذهب في مرحلة معيّنة من تغلغلهم إلى الجنوب .

تشير بعض المصادر إلى تواجد روّاد زحفهم على البلاد الشنجيطيّة سنة 597هـ/1200م في واد الذهب ، وواصل السعديّون بعد المرينيّين تلك السياسة الرامية إلى إبعاد معقل من ربوع مملكتهم .

ولا شكّ أنّ بني معقل كان لهم نصيب لا يستهان به من الغلظة والاستبداد . تؤكّد ذلك آثارهم التاريخيّة وأخلاقيّاتهم التي اصطنعت العنف والتجبّر مصدرًا للحياة ومذهبًا أخلاقيًا وسيرة مثلى يعتزّ بها ... وقولة « ديلول » الحكيم أن « خير العرب من ترتع المواشي على قبره » ، يقارن بما ينسب إلى ابن خلدون : « إذا عربت خربت » وقولة ديلول الحكيم وإن كنّا لا نتبنّاها ، تترجم بصدق وأمانة مشاعر طبقات الشعب المستضعفة في البلاد نحو بني حسّان عمومًا المتغلّبين في الأرض الموريتانيّة من القرن التاسع الهجريّ . أوّل مجموعة ذات شأن من العرب تصل إلى القبلة هم أولاد رزك بن أدي بن حسّان . « رزك » أخو مغفر .

ثمّ توالت موجات الهجرة العربيّة . جاء بعد أولاد « رزك » أولاد ابارك ، ثمّ أولاد عُقبة ، ثم أولاد داود بن عمران ، وفي الأخير المغافرة الذين تمركزوا في البلاد في أواخر القرن العاشر أقاموا ملكهم على أنقاض دولة أولاد رزك ، بعد وقعة « إنتيتام » سنة 1040هـ/1632م التي تعتبر نهاية عهد أولاد « رزك » وبداية دولة المغافرة التي كتب لها البقاء إلى أن احتلّ المستعمر البلاد سنة 1321هـ/1903م واستأثر ببعض السلطة .

والمغافرة تطلق على :

— الطرشان (أولاد علي الأطرش ولد عثمان) وأولاد الناصر، وأولاد امبارك، ولخواوات.

— أولاد ازناكيه ، وهم ذرّية عمران بن عثمان بن مغفر نسبة إلى أمّه : مَرْوشه بنت الأحمر الزناكيّة ، وهم أولاد هدّاج بن عمران الثلاثة : بركنّي وتروز والخيواوات ، وغيرهم

من ذرّية عمران بن عثمان بن مغفر بن أودى بن حسّان . وينقسم أولاد ارناكية إلى مجموعات التزارزة والبراكنه وأولا يحيى بن عثمان .

- أولاد العربيّة وهم ذرية امحمّد واعلى الأطرش آبنيْ عثمان بن مغفر ، نسبة إلى أمّهما العربيّه . ومنهم أولاد امبارك ، وأولاد نخلة ، وأولاد طلحة ، وأولاد أحمد بلّ ، وأولاد منصور وإخوتهم أولاد بوفائده ، وغيرهم من ذريّة امحمد بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان .

— أولاد الناصر ولا يدخلون في أولاد العربيّة ولا أولاد الرناكيه لانهم ذرّية ناصر بن مغفر ، وكذلك غيرهم من ذرّية مغفر .

هذه هي المجموعة العربيّة التي وصلت إلى الإقليم وآقتسمته ، منها ما كتب له البقاء وآستمراريّة النفوذ والتأثير مثل المغافرة . ومنها ما خمل ذكره وآنمحى في مجموعات أخرى وذاب فيها ، إمّا بحكم « التوبة » فينصهر في قبائل الزوايا ، مثل ما وقع لأولاد امبارك وأولاد يونس وأولاد عقبة ، وإمّا يدفعه الضعف والخذلان إلى الالتحاق باللّحمة بتحمّل المغرم لبعض حسّان ...

وبين المدلولين « حسانيّ » و« مغفريّ »، فارق في الدلالة المصطلح عليها ، فالحسّانيّ هو من يحمل السلاح ويصطنع العنف وسيلةً للحياة ، وأسلوبا للمعاملة مع الغير ، وعلى هذا الأساس هو مفهوم محمول على المذمّة . وهو يطلق على كلّ من يصطنع العنف وسيلة للحياة سواء كان من أصل عربيّ أو صنهاجي أو زنجيّ .

يقال : هو غفره ، أي في حمايته وأمانه . وكلمتا مغفر ومغافرة بمعنى واحد ، الأولى أعمّ دلالةً من الثانية . أمّا مدلول « مغفري » ، فله محامل تفيد الشهامة وسموّ الأخلاق، والاعتدال في الأمور وتحاشي كلّ ما يزري بالمروءة ، أو يقدح في العدالة الشرعيّة ، أو الكفاءة الاجتماعيّة ، وهي شيم تبنّتها طبقة النبلاء من حسّان المتمثّلة في أسر الأمراء ، ومن آهتدى بهديهم .

وأمّا عبارة « أمجار » ، فإنّ محاملها أسمى وأنبل ، تطلق على الزعيم من بني حسّان ، لا يقتحم حماه ، ومن دخله أمن من صولة الأعداء واللّصوص .

— وأمجار ، جمعها « إماجرن » صيغ منها فعل « مُوجَر وامُوجَر » في اللغة الحسّانيّة ، وهي قياسًا على القاعدة الصرفيّة ، بموجر بمعنى حمى يحمي من آستجار به ، أو دخل في حماه ، فخفره . ولاستيفاء أهمّ معالم مبحث « حسّان » يبدو من الضروريّ إلقاء نظرة عابرة على الآراء المثارة حول نسبهم ، على سبيل الإشارة لا الإحاطة .

النسب المتّفق عليه هو أنّ مغفر بن أودي بن حسّان بن موسى بن حامد بن سعيد بن المختار بن عقيل بن معقل بن محمّد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب .

طعن آبن خلدون في هذا النسب ، وأعاد نسب حسّان إلى سلالة حميريه ، وتصدّى

ذلك حتّى أغاروا عليهم مرارًا ، ثمّ كفاهم الله شرّهم ، فجعل الله بأس الفئتين بينهم ، وصبرهم على الجفاء ، وما ينالهم من أذى الناس ، وتجاوزهم عن جفاة الطباع تخلّقًا بأخلاقه ﷺ ، وكثرة الصبر على جور الظلمة لشهودهم أنّ ما جاروا به عليهم دون ما كانوا يستحقّونه بذنوبهم ، وكثرة الحلم عن من جار عليهم ، وكظم الغيظ ، وكانوا يصبرون كثيرًا من جور قبائل قبل أولاد رِزكٍ [8] منهم : لخبابشه [9] ، ولعزيزات [10] ، والبرابشة [11] .

له أحمد بن خالد السلاوي ، صاحب (كتاب الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى) وفي كتابه : طلعة المشتري .

فردّ عليه في كتابه : «طلعة المشتري في النسب الجعفري» مؤكّدًا صحّة نسب بني حسّان إلى جعفر الطيّار.

وهذا هو ما عليه جلّ علماء الأنساب في البلد ، إلاّ ما كان عند العلاّمة محمد اباراك اللمتوني ، كان يعيش في أواخر القرن الثالث عشر الهجريّ ، وتوفّي بعد الشيخ سيدي الكبير (1284هـ/1868م) تقريبا عام 1290هـ/1873م وما كان له من رأي شاذّ في الموضوع حيث يقول في منظومته (تاريخ لمتونة) : (من الرجز) :

(ومغفـر نسبهـم مشهـور ... والخلـف فيهـم عنهـم مأثـور
فبعضهـم يقـول نسل يـدر ... حليـف حميـر الأميـر البربـري
وبعضهـم إلـى حليـف هـاشم ... الطائفي مـن ثقيـف سالـم
لأجـل ذا آدّعـوا بأنّهـم قـريش ... زمن حربهـم لحميـر «ادعيش»)

أي (ادوعيش) . والعلاّمة محمّد اباراك له آراء طريفة في الأنساب تميّز بها ، وهي مغايرة للمألوف في بعضها ، كما أنّ له فهمه الخاصّ وتصوّره للوقائع التاريخيّة التي أطلّ عليها من زاوية لمتونيته الضيّقة المتزمّتة المتحيّزة ...

(8) أولاد « رزكٍ » بن أذى بن حسان ، أخو مغفر .

رأينا في الهامش السابق ، ما كان لهذه المجموعة من شأن ، تملّكت على البلاد في القرن التاسع إلى منتصف القرن الحادي عشر تقريبًا (1040هـ/1630م) وآنقسمت في أوج نموّها إلى إحدى عشرة قبيلة منها ، أولاد بواعلي ، وأولاد احليفه ، ولكتيات ، وأولاد عايد ، والعساكره ، وأولاد عبد الواحد ، وأولاد رحمون ، وأولاد عطيه ، وقيل : باسين .

وبيت السيادة في أولاد « زرك » هم أولاد بواعلي نذكر من مشاهيرهم :

امهيين بن عيسى قتل يوم « إنيش » بين المغافرة وأولاد « زرك » حوالي 1039هـ. وأخوه الذي خلفه محمد ، وعمران بن اعلي ، وآبناه ، موسى والمنصور ، وكَنْدُول بن موسى ، آشتهر بالعنف والعظمة ، عقب بنته « عيشه » أم أولاد عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز ، وهم أولاد البُواعلي .

ثم جاءت أولاد رزكٍ ، فاشتدَّ جورهم عليهم . ووقع كثير من الجور على تشمش من كَهْدُول [12] بن موسى ، من أولاد بواعلي ، حتّى أنّه إذا

ومن مشاهيرهم : أَدَيْكْ بن أبي أيوب الذي رأباه بقوم بدور خاصٍّ في شربه ، وهو الذي أخبر المغافرة بغرّة الزوايا فهاجموهم في يوم « كثيب القضاة » الوقعة المشهورة ومنهم : إشيل بن امهيين الذي مالأ المغافرة على لكتيبات بعد حرب ضارية بين الأخوين ، من أيّامها المشهورة يوم « تِنباشيل » ، حتّى تدخّل المغافرة في نزاع الأخوين فاستعان بهم أولاد بواعلي على لكتيبات ، فكانت وقعة « انتيتام » التي شاركت فيها إلى جانب المغافرة حلّة سيد أحمد لعروسي .

لهذا السبب زالت دولة أولاد رزكٍ ، وتفرّقوا أيدي سبا ، منهم من التحق بالزوايا ، ادولحاج واكَملَيْلن (أهل الزبير) ، ومنهم من اندمج في السودان، أو انتحل حرفة اللحمة ، مثل ما وقع لأولاد عبد الواحد المندمجين في « إرالْن » ، وبعضهم هاجر إلى الحوض مع أولاد امبارك ، وبطون أولاد بواعلي ، هي أهل سيره ، وأهل ساسي « بَلاّخ » وأهل مُوز ، وأهل أحمد بن أعمر .

وبيت عزّهم اليوم أهل اعلي وَنّاس ، اشتهروا بالنخوة والكرم والشهامة .

(9) لخبابشه ، جزء من مجموعة « إِنِبرزيكٍ » أنباط القبلة قبل تغلّب أولاد « رزكٍ » ، كانوا أهل شوكةٍ على السَّنن الحساني . اندثرت معالمهم وانقرضوا إلاّ من تاب في تندغه ، ولم يبق لهم من ذكرٍ إلاّ ما في المثل « عيش لخبابشه » في سياق أحقر به من عيش لخبابشه ، في معنى عدم الاكتراث ، والبَلْحة لخبابشه » ، رمز الجشع .

(10) لعزيزات ، هم كذلك جزء من مجموعة (انبرزيكٍ) هاجرت بقاياهم إلى أهل سيد محمود ، ضمن عامة ابدوعيش الذين التحقوا بأهل سيد محمود .

وفي الانتساب إلى أولاد رزكٍ يقال « رزكَاني » و« رزكَاوى » . ومنه فلان « إمْرزكَي » أي أبيّ عن الضيم ، متغطرس .

(11) لبرابيش من بني حسّان ، وقيل : غير ذلك ، وصلوا القبلة قبل أولاد رزكٍ ، دخلوا الصحراء على محورين ، محور آزواد ، وهو محلّ تجمّعهم اليوم ، ومحور إلى الجنوب ، تفرّعت من بربوش (أبو لبرابيش) بن حسّان العديد من القبائل ، نذكر منهم : أولاد عبد الرحمان ، وأولاد اسليمان ، أولاد أحمد ، ولمحافيظ (منهم أهل عبد الحي ، قضاة إِرْكَيبات) ، وأولاد عمران ، وأولاد إعيش ، وأولاد بوخصيب ، وأولاد إدريس ، وأولاد غَنّام ، وأهل غيلان ، ولم يكن لجناحهم الغربي من الحظّ في القوّة والشهرة ما كان للجناح الشرقيّ . من ذلك اندماجهم في بعض القبائل بحكم التبعيّة ، مثل اغرازير (حشاشة لبرابيش) ، ومنهم ابرابيش أولاد الناصر ، وابرابيش أولاد عَلُّوش ، أو أولاد كاني من ازخيمات ، ولكبابشه ، أو (لكنابشه) في عداد اشراتيت .

(12) « كَهْدُول » بن موسى بن اعلي ، من أولاد رزكٍ ، شعبة أولاد بو اعلي ، عاش في القرن العاشر الهجريّ . اشتهر بالسطوة والاستبداد ، كما هو واضح في نصّ الشيم . كلّ ما

أتت راويته إلى بئرهم لا يبرك جملها حتّى تسقى قربه والجمل واقف ، وإذا أصبح عليه البقر باركًا ، لا يثيره من مباركه أحد ، ولو أهله ، حتّى ينهض البقر وحده ، بلا إثارةِ أحدٍ ...

ومن شدّة ظلمه وجوره على تشمش أنّه أتاهم عند بئر أكْنِنت[13] هو وأصحابه وباتوا يقتسمون « تشمش » ، وَبَيَّتوا أمرهم على أنّهم يصبحونهم بالغارة ، أو بقبول المغرم . فبلغ ذلك تشمش ، وقالوا : بل نحن نقتسمهم .

فقام منهم آثنا عشر حافظًا للقرآن ، وقرأ كلّ واحدٍ منهم سورة طه على بعرة ، ثمّ حفروا حفرة وجعلوا فيها تلك البعرات ، فردمها واحد منهم

دخل حماه يستملك عليه ، إلّا ما تنزّه عنه ، وله آمتياز الحصانة ، من ذلك ميسم أولاد ديمان وإيّد اجْفَغ الذي أهداه لهم ليسموا به مواشيهم حتّى يكون لها حصانة من جور الظلمة ونهب اللّصوص .

ويشمل هذا الامتياز بني بِدّاج ، وبني يَدْمُسْ ، كان ميسم تشمش كلّهم لام وألف (لا) علامة المجلس .

وتأكيدًا لنزعتهم الاستقلاليّة آتّخذوا ميسمًا من شكل (↓) قدم الحبارى ، أهداه إليهم كِدُول ، رمزًا لاحتمائهم بحماه وحصانته . وهناك أنواع أخرى من أسباب الأمان والحصانة ، مثل حظيرة امرابط مكه التي ترك له حسّان بخمسة عشر عامًا قبل شربه ، من دخلها كان آمنا ...

(13) « أكْنِنت » كما رأينا سابقًا ، بئر في شمال « إكِيدي » الغربي ، مسقط رأس حلف تشمش وعاصمتهم التاريخيّة ، رمز وحدتهم وسجلّ خصالهم الحميدة ، وشيمهم النبيلة ، ويقع جنوب « بِنْدَكِسِمْ » على مسافة 20 كم تقريبًا ، جاء في كتاب (إخبار الأحبار بأخبار الآبار) لامحمّد بن أحمد يوره (1340هـ/1922م) في معنى هذا المدلول : « أكْنِنت » وأصله بالبربريّة « أغْكِنْنت » تصغير « أكِنِن » وهو واحد شجر « التنضب » ، وهي بئر طويلة قليلة الماء ، وعلى كثيبها الغربيّ ، وقع تحالف تشمش ، في صدر القرن الثامن ، أو آخر السابع الهجريّ ، كما جاء في نفس المصدر . وجاء في نقلةٍ من تقاييد محمد بن خالنا في موضوع خصوصيّات بئر أكْنِنت وبيئته الطبيعيّة : أنّ سمرة الهواء المضرّة بمن بات بها في بعض البلدان تنتهي لدى أكْنِنت ، يعني أنّ غايتها بالنسبة للقبلة شجرة من إكِنِين (تنضب) عند بئر اكْنِنت ، كما أنّ أدنى شجرة تنضب منه من جهة القبلة عندها قبر كِدُول بن موسى الرزكاني البوعلي المشهور بالجور والسطوة .

بمقاعده [14] ، فاتّفق أن صبحه [عمه] وأولاده بالقتل ففرج الله على تشمش ، وكثيرًا ما يكون عاقبة صبرهم [15] الفرج من الله تعالى . (سنّة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً) [16] .

ومن شنيع جورهم على تشمش ، أنّ رجلين من أولاد بواعلي من قبيلة محمد بن « إِكِدَوَنِي » خرجا يصطادان بكلبيهما فرجعا خائبين ، فمرّا بصالحة من تشمش ، قيل إنّها من إيداچفغ [17] تتنفل ضحى خارج حلّتها [18] ومعها ولدها صبيٌّ سمينٌ جميلٌ فتقاولا أنّ كلبيهما اليوم بقيا بلا غداء ، فليكن

---

(14) في النصّ المطبوع : بقدميه ، ولكن الصّواب هو بمقاعده ، وتعليل ذلك يرجع إلى ممارسات خاصّة تدخل في باب أسرار خواص الأشياء التي يعلمها الخاصّة من الناس . وردت العبارة في المخطوطة (ب) و(ج) .

(15) في النصّ المطبوع : عاقبة أمرهم،وآستصوبنا إبدالها بكلمة صبرهم التي وردت في بعض النسخ ، وهو أقرب لمعنى النصّ . راجع المخطوطة (ب) .

(16) قرآن كريم : ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ﴾ سورة الفتح ، (48) . الآية 23 .

(17) إيداچفغ ، إحدى قبائل تشمش ، تنتمي إلى أحد الرجال الخمسة ، أوّل من وصل إلى القبلة منهم ، وهو اتشفغ بدْنيال يعقوب بن إِكِدْنوبك . كانت لها دور خطير في بداية عهد الائتلاف الشمشوي حتّى مزّقتها حرب شرببه ، ودفعت بالعديد من أفرادها إلى الهجرة مثل « إِنْكِراثه » في شمال البراكنة ، وتشمش في الحوض .

تنقسم إيداچفغ إلى البطون التالية :

— أولاد خبّين — أولاد هُنض — وإيدواخمذنلّ — وادام چك . وهم الألفاغيون ، الواحد منهم الألفغي في المصادر العربيّة .

(18) الحلّة : مصطلح قليل الاستعمال في القبلة ، ومطّرد عند أهل التلّ ، والشرق ، ومعناه مركز قيادة القبيلة أو المجموعة ، حيث يوجد أكبر تجمّع لها منتظمًا حول قيادتها ، ونراها في النصوص مستعملة لتجمّعات الزوايا وغير الزوايا ، كما في النصّ ، لعلّها مشتقّة من حلّ بالمكان .

ومحلّة التجمّع البدويّ ، هي دائمًا بين حلّ وظعن ، وهذا المفهوم قليل الاستعمال في القبلة من بداية عهد المغافرة ، يقوم مقامه كلمة المحصر ، وهي محلّة الأمير ، وكلمة الفريق مرادفة لها .

هذا الصبيّ السمين [19] غداءهما . « فشقّاه نصفين والعياذ بالله » .

فقالت الصّالحة : اللّهم إنّك تبصر هذا وكأنّك لا تبصر ! قالت ذلك تدلّلاً على الله تعالى . لا جراءةً ولا جهلاً .

فأخذ كلٌّ منهما نصفًا لكلبه ، ففرغ أحد الكلبين من نصفه ، وتناوشا على بقيّة النصف الآخر ، وقتل كلّ من الرجلين صاحبه . فكان هذا من دواعي خراب أولاد بواعلي ، وأخبار صبرهم كثيرة ...

ومن شيمهم وسيرتهم عزوفهم عن الدنيا ، وعدم المناقشة فيها ، وعدم الرغبة في حطامها الفاني ، وقلّة الطمع فيما في أيدي الناس ، ولا سيّما الظلمة ، وترك الخصومة في الد فيما بينهم وبين غيرهم ، وعدم التنازع [20] في متاع هذه الجيفة الخبيثة ، فإن آدّعى أحد عليهم شيئًا أعطوه .

وإذا كان لهم الحق على الغير ولم يساعدهم تركوه . فكان هذا دأبهم حتّى كان أوّل من تخاصم منهم على الدنيا أبو يعدل [21] مع آبن عمّه موسى بن يكِد شلل [22] الألفغيان في شأن عبيد يدّعيهم الأوّل على

(19) في النسخة المطبوعة : « جميل » بدلاً من سمين ، ووردت سمين في النسختين (ب وج) فأثبتناها .

(20) في بعض النسخ المخطوطة : « النزاع » مكان التنازع وهي العبارة الواردة في هذا السياق والمفيدة للمعنى المقصود . ووردت في نسخة (ب) . ووردت عبارة التنازع أيضا في المخطوطة (ج) .

(21) أبو يعدل بن بوبكر شضّ من إداچلغ ، بطن أولاد هنض ، وهو معاصر لسيد الفال ، ويفهم من السياق أنّه أحدث منه سنًّا . أبناه : اتشفغ عبيد ، والفاضل الذي آستعمله ناصر الدين على اجيلوف ، ونذكر من أعلام بطن أولاد هنض: محنض بن حيض (أو حيل بن بوبكر شضّ ، وهو من قضاة ناصر الدين ، وآبنه اتشفغ منصر جدّ أهل أوفى .

(22) موسى بن يكِدشل وهو أبو حيل آبن عم أبي يعدل معاصر له . وشضّ وشلّل مترادفان يطلقان على نفس الشخص .

الثاني ، فترافعا إلى سيد الفال [23] ، فأخفى مرافعتهما عن الناس ، وأمر أن يضرب عليهما بستر حتّى يترافعا ، لأنّه يعد ذلك عورة شنيعة لكون الخصام لم يعهد في تشمش قبل ذلك ، ثمّ إنّ سيد الفال قضى لموسى على أبي يعدل من غير أن يتكلّما ، بل قال لأبي يعدل : مالك وعبيد حبيلل ، وقال لأبي حبيلل : أعط عبدًا من عبيدك لابن عمّك ، فأعطاه عبدًا ، فكان هذا بعد ذلك سنّة بنيهم فيما بعد : فمن أولاد حبيلل من أعطى عبيدًا متعدّدة لأولاد أبي يعدل .

ومن أخلاقهم وشيمهم أيضًا كثرة التزاور والتواصل بينهم ، وصفاء المودّة بينهم ، وعدم الغلّ والغشّ بينهم ، ومحبّة بعضهم لبعض ، حتّى كأنّهم بنو أبٍ واحدٍ ، وتوقير الصغير منهم للكبير ، ورحمة الكبيرِ الصغير ، وحسن السيرة فيما بينهم والإغضاء والمسامحة فيما بينهم ، وأنّ كلّ واحد منهم صديق ملاطف للآخر ، ويوثر كلّ واحد منهم أمر الآخر على أمر نفسه ، وكثرة وصيّة بعضهم لبعض ونصحه له ، وقبولهم النصح ، وشكرهم الناصح ، وأنّهم لا يقومون بحقّ شكر من نصحهم ولو أحسنوا إليه مدى

---

(23) سيدي الفاضل بن محنض اكِد الديمان ، ومحنض هذا دفين رأس الكلب ، وهو محمد ابن أبي الناس بن يديمان بن يعقوب بن انتشفغ مسّ . وكان سيد الفال هو ثالث إخوته وهم : الماحي ، وبه كنّي أبوه محمد ، والفال ، وعبد الله ، وأمهم احشذه .

يقول محمّد بن خالنا في كتاب كرامات الأولياء : « كان رجلاً أبيض أمهق عيقًا رشيقًا ، لا يشتكي قصر منه ولا طول ، صبيح مليح أمين نصيح عالم علاّمة فطن فهّامة ، محقّق مدقّق ، متفنّن محسن عادل فقيه سالك ناسك ... رئيس الأمة عريفها ... إمام الأئمة ، ماضي العزيمة نافذ الكلمة ، على حسن السيرة وطيب العشيرة ... وكرم السريرة ... يضرب به المثل في الزهد ، ولو في ساعة العسرة ... فهو لليتيم كالأب الرّحيم ، وللجار والغريم كالوالد الكريم ، وللضيف والعديم كالخليط النديم ، ولسالك الطّريق كالأخ الشقيق ، فهو سيّد أولياء طرفي زمانه ، كما أخبر بذلك ناصر الدين » .

وشخصية سيد الفال لها أبعاد بالغة الأهميّة ، الإحاطة بها تتطلّب بحثًا مستفيضًا ، نهيب بأصحاب الهمم والمواهب ليعتنوا بهذه الشخصيّة العملاقة لاستجلاء معالمها ، ودراسة ما كان لها من تأثير وآثار في جميع المجالات . توفّي سيد الفال تقريبًا سنة 1047هـ/1638م.

الدّهر ، لأنّ الأمور الأخرويّة لا تقابل بالأعراض الدنيويّة ، وهذا خلاف عادة الناس اليوم .

« فمن نصحت له اليوم عاداك وعدّ ذلك تشنيعًا له وتعييرًا وتنديدًا[24] أو شماتة الأعداء ، ويقول : إنّك تبغضه . قال الشعراني : [25] « نصحت يومًا شيخًا سِرًّا في الأكل من بيوت الظلمة ، فهجرني سبع عشرة سنة ، فما صالحته إلاّ بجهدٍ عظيمٍ . قال : فكيف حاله معي لو نصحته في ملأ لعلّه كان يسعى في قتلي .

ومن أخلاقهم وسيرتهم حسم مواد الفتن ، وعدم مخالطة الناس ، ورؤية محاسنهم ، والتعامي عن مساويهم ، وعدم رضاهم عن أنفسهم ، وأنّهم لا يعادون أحدًا لحظّ أنفسهم ، وإنّما الناس هم الذين يعادونهم ، ومداراتهم للناس، وتسوية الرفيع والوضيع في الضيافة، وعدم مقابلتهم أحدًا بسوءٍ ، وقلّة الطمع فيما في أيدي الناس ، ولا سيّما الظلمة ، والتقليل من مداخلة غيرهم ما آستطاعوا ، ولا سيّما حسّان ومن تشبّث بهم ، إلاّ من تحقّقوا أنّه منخرط في سلكهم ، أي [26] في سيرتهم هذه المثلى فهو مثلهم حينئذ فيما هم عليه ، ولو كان سودانيًّا أو صنهاجيًّا [27] ، وهجر أحدهم لأخيه إن خالط حسّان ، وتعظيمهم حرمة المسلمين ومحبّة [28] الخير لهم ، وتوقير أهل الله والعلماء ومحبّة المساكين .

« وقال صاحبنا (الأديب) المختار متالي [29] يمدح تشمش مخاطبا لهم : (من بحر المتقارب) .

---

(24) في النصّ المطبوع : تنذيرا ، آستحسنا إبدالها بكلمة تنديد الواردة في نسخة (ب) .

(25) عبد الوهاب الشعراني ، عالم صوفيّ مصري من أهل القرن العاشر ، وهو من تلاميذ السيوطي ، ألّف في التصوّف : كشف الغمة ، الميزان ، اليواقيت .

(26) في النسخة المطبوعة : «في» ، ولاستقامة المعنى أثبتنا (أي) الواردة في النسختين : (ب وج).

(27) صنهاجيّ هنا بمعنى لحمي ، أي من الطبقة الغارمة المستغلّة « ازناكي » .

(28) في النسخة المطبوعة : « محبتهم الخير لهم » . راجع المخطوطة (ج) .

(29) هو المختار بن محمد بن عبد الله الملقّب بمتالي من أهل بِلّ من ادابهم ، وهو المختار متالي ولد بل ولد المختار ولد عثمان .

ـــ عالم مشهور معاصر لمحمد اليدالي المتوفّى سنة 1166هـ/1752م ، « نظم : سبعة

تشمش أحمدوا ربّكم واشكروه ... على وفق إجماعكم خير ملّه
طريـق النبـيّ وأصحابـه .. نجـوم الهدايـة والأهلّـه
وكونكـم نـاصري دينـه ... كنصرهـم ثـابت بالأدلّـه
كشبـه الغـراب الغـراب بحق ... ونصر ببـدر وأنتـم أذلّـه
وكم قارىء فيكـم ووقـور[30] ... وقـار بطـيب وطبـخ وملّـه
وذي أثـر دون مأثـوره ... يؤثـر مـن جـوده أهـل قلّـه
ومـن عينـه تستقـلّ عطـاه ... كثير من العين يملأ قلّه[31]
بقيتـم بـنصر إلـى حسن ختم ... مـع البـرء مـن كـلّ داء وعلّـه

3 ــ (أصل تشمش وسبب تسميتهم تشمش)

إنّهم خمسة رجال ، خلّف كلُّ واحد منهم خمسة أولاد ، أعقبوا كلّهم وتعاقدوا على خمسة أشياء ، ومعنى تشمش بالعجمية الخمسة ... ثمّ إنّ تشمش بعد معاقدتهم على الدّين وإقامة السنّة ، لم يزالوا مع المجلس « وهم » قبيلة زاوية يقال لها مجلس العلم ، هم أصل هذه الزاوية في هذه البلاد ، ولكن إذا رحل المجلس[32] إلى بلاد التلّ[33] تخلّف عنهم تشمش في

المطالب في استحالة قدم العالم » ، وهو المعني في أرجوزة « يَجُّو » ولد أحمد مولود 1304هـ/1886م التي يتوسّل فيها بصالحي تشمش حيث يقول :

« والبلـوي وحزبـه متالـي ... لـم يلـق مثلـه فـي الأمثـال
والـحسن الطاعـي بالعـال ... مجيـد نظـم سبعة المطالب (ب) »

ومن نظمه لسبعة المطالب قوله :

« يقـول راجيًـا نـوال الوالـي ... عبيـده التونكلـي متالـي
حمـدًا لبارىء الـورى المطـالب ... لهـم بعلـم السبعـة المطـالب
والله أرجـو أن يكـون نافعًـا ... بنظمها القـارىء والمطالعـا »

(30) في النسخة المطبوعة «ووفور» وهو تحريف خطي ...

(31) القلّه : القدر .

(32) مشتق من مجلس العلم، قيل : إنّ جدّهم كان قاضي مجلس أبي بكر بن عامر المتوفى عام 840 هـ/1087 م قائد فتوحات المرابطين الإسلاميّة في إفريقيا .

وجدّهم القاضي هذا ، هو إبراهيم الأموي ، يرجع نسبه إلى عمر بن عبد العزيز ، كما يقول العلامة عبد القادر بن محمد سالم في ترجمته لنفسه في شرحه على «قرة الأبصار» ،

القبلة (34) حتى يرجعوا إليهم ، فذلك دأبهم معهم حتّى تخلّفوا عنهم في

حيث يقول : « المجلسي المالكي الأشعري ، عبد القادر بن محمد بن محمد سالم بن محمد سعيد بن محمد بن عامر بن أبي السيّد بن أبي بكر بن علي بن يمغدش (السالم) ابن وديعة الله بن عبد الله بن أحمد يلت (أحيان) بن بدر (بحيش) بن إبراهيم الأموي ...

و«إبراهيم» هذا يقال والله أعلم ، إنّه من ولد عمر بن عبد العزيز ، كانت لهم كثرة وعمارة ومملكة عظيمة ، حتى أنّه يحكى أنّ المسافر يمكنه أن لا ينزل إلّا بحيّ من أحيائهم في كلّ مرحلة فيما بين «تيرس» و«كِبار» ،كما ورد في تاريخ ادوعيش لسيدي بن محمد بن سيدي . فكانوا ملجأ الضعيف والمضطهد ، حتّى قيل : إنّهم أصل الزوايا بكلّ ما تملك المدلول من محامل خلقيّة ودينيّة ، وقيم ثقافيّة وحضاريّة وشيم نبيلة ، من ذلك إيواؤهم لرجال تشمش الخمسة الذين آقتبسوا الكثير من أخلاقياتهم السامية .

إلاّ أن هذا العمران أخذ في الاضمحلال من بداية القرن الحادي عشر بأربعين سنة قبل « شربيه » حسب المرجع السابق ، ومن أسباب ذلك الانحطاط ، الحرب التي دارت رحاها بين المجلس وتندغة ، والتي آنتهت بهزيمة المجلس .

آعتزل هذه الحرب محمد ساعيد جدّ أهل محمد سالم الذي ذهب حاجًا ، وآتخذ شمال الصحراء وطنا ، حيث تأسّست أهمّ مدارس الفقه المالكي الموريتانيّة بآسم أهل محمّد ولد محمد سالم ، والتي بلغت من الشهرة درجة التبريز ، فأصبح التخرّج منها ضروريًا لكلّ فقيهٍ يرشّح نفسه للصدارة والتفوّق ...

تحدّث المصادر عن امرابط المدلش ، وأمير المدلش لأداء نفس المعنى ومحلة مدلش كما ورد في باب الأمثلة « زاوكِ المدلش » أي مهاجرهم ، والمشهور أنّه لا يعود ، وتتركّب قبيلة المدلش اليوم من البطون التالية :

إدوعْمَر ، فيهم بيت الرئاسة . وادوبهان . وأهل أبوكِرشل . وأهل بواحمد . وأولاد بُوسيد (محمد ساعيد) وهم أهل محمّد ولد محمّد سالم ، هذه أهم فصائل هذه المجموعة التي لا نستطيع آستيفاء حقّها من البحث في هذا الهامش المقتضب ، فتاريخ دولة المدلش موضوع خصب يستحق دراسةً مستفيضةً ، رجاؤنا أن يقيّض الله لها أحد أبنائنا البررة ، ويعينه على أداء ذلك العمل .

(33) بلاد التلّ مصطلح جغرافيّ ، يعني بالنسبة إلى سكّان القبلة ، الصحاري الممتدّة شمال الخط السوازي العشرين ، وأهل التلّ تؤدي نفس المعاني المعبّر عنها بالسّاحل ، وأهل السّاحل ، محملها مثيرة لمشاعر مختلفة ومتناقضة : الكراهيّة والاحترام، العنف مع نوع من الوداعة الفطريّة ، والجشع الحيوانّي ، مع آحتراف البذل والسخاء ، وغير ذلك من الأعراض النفسيّة ، وليدة الممارسات الشاذّة ، المتطرفة . وآصطلاحا : أهل التلّ من غير «البظان» ، وأهل الساحل من «البظان» ما دون «وادنون» .

(34) القبلة . مدلول جغرافيّ ، ولكنّه في نفس الوقت له محامل آقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة ،

بعض تلك السنين ، فأتاهم رجل من أولاد اخليف من أولاد رزك ، فطلب منهم المغرم فأبوا فأغار عليهم ، ثمّ أتاهم ثانية ، فراودهم بالمغرم فأبوا ، فأغار عليهم ، فلمّا كانت الثالثة نصرهم الله ، وذلك بأن مرض الاخليفي ، مرضًا شديدًا ، وأرسل إلى مرابطه رجل من تندغ (35) من اركاكنه[16] ،

عرفت المنطقة نهضةً عليّةً بدأت في أواخر القرن الحادي عشر ، ونضجت في الثاني عشر ، وأتت أُكلها في الثالث والرابع عشر ... وما بعد التمام إلّا النقصان ... آزدهرت اللّغة العربيّة وآدابها بأنماطها ــ الشعر ومدارسه وفنونه ، المقامات والرحلات ، الفنون الشعبيّة من أزجالٍ بطوليّة (اتهيدين) ، وموشحات غراميّة تعبق بآهات الحبّ العذريّ ... أمّا العلوم الدينيّة فكان لها الحظّ الأوفر من آشتغال أجيال وأجيال بها ، لتعلّمها وتعليمها ، وإثرائها بالشرح والتصحيح والتنويع . وآتسعت دائرة المعارف إلى فنون جديدة كانت شبه محظورة ، منها المنطق ، وعلم الرصد والتنجيم ، والطبّ والصيدلة ، والعلوم الاجتماعية من تاريخ وأخلاقيات ...

بهذه الكثافة البشرية والحضاريّة والاقتصاديّة ، كانت القبلة تتهيّأ طبيعيًا لتكون الأرضيّة الصلبة لتشيد الدولة الإسلاميّة الموريتانيّة الحديثة ، وبوتقة آنصهار العناصر المختلفة لهذه الأمّة بعضها مع البعض وآنسجامها ، كلّ برابطة أخوّة الإسلام ووحدة المصير والانتماء إلى ماض مشترك .

(35) تندغه : من أقدم وأهمّ قبائل زوايا القبلة .

ــ آشتقاق الدلالة ، هو « إنّ نْضْغْ » أي صاحب الجفنة ، قال بهذا بعضهم ، والبعض يقول : إنّها مشتقّة من « وَرْتَنطق » ، قبيلة يوسف بن تاشفين وآبني عمّه أبي بكر ، ويحيى . وتندغه فعلاً تنتمي إلى بيوت الأنباط خلفاء زعامات المرابطين يعتزّون إلى حدّ اليوم بنسبهم اللمتوني ، كما حافظوا على مقوّماتهم الثقافيّة بما فيها لغة صنهاجة (كلام أزناك) التي مازالت هي أداة التفاهم ووسيلة التعبير الوجدانيّ عند البعض منهم ، ومن غيرهم من قبائل القبلة ، مثل أولاد ديمان ، وايداب لحسن .

ومن العجيب في تندغة خروجهم على قاعدة آنتحال النسب العربي أو الشرف التي قلّ من حاد عنها من الزوايا ...

يقول شاعرهم المصطفى بن أحمد مولود من « إشكاش » ، وهو الملقّب « اباب » علما (من بحر البسيط) :

إنّا تنادغ لم نبرح لنا الغلبه ... على الزوايا بعلم وافر الطلبه

العلم فينا وفينا المال أجمعه ... والعدّ والعدد المسمومة الذّربه

أبناء أعمامنا فرسان ملحمه ... يدعون بالكدر المسودّ والدّبّه

آحتضنت مجموعة تندغه فيما قبل شريه الكثير من القبائل ، مثل أولاد أبيير ، وإداب

لحسن ، وقربوا تشمش برفع ظلم حسّان عنهم بفضل وجاهتهم عندهم ، مثل ما كان من ظلم الخليفي وجوره عنهم بمساعي الصلح التدغي ، وقربوهم كما تقول الرواية الشعبية عندما أخرجوهم من الحظيرة التي حبس المجلس فيها خمسة وثلاثين عالمًا من تشمش ضغطا عليهم من أجل إقحامهم في الحرب لصالحهم أو تحمّل المغرم لهم ، فأنحاز تشمش ، أولاد ديمان منهم على الخصوص إلى تندغة . يكفي دليلاً على ذلك التقارب أعتمادهم ميسم تندغه المسمّى الحباري بالتصغير (ادجيجه) . ولهذه العلامة قصّتها ، يعود تاريخ أعتماد تندغه لها إلى عهد حروبهم مع المجلس التي أشرنا إليها في هامش المجلس . قيل : إنّ اللّب ولد اشويخ المغفري بن المباركي أهدى لتندغة أمتياز الميسم المذكور لتأمين مواشيهم من المجلس . يقول الشاعر الشيخ بن محمد أحمد ولد الشيخ محمد عبد الرحمان ولد محمود ابن الرباني التدغي 1349هـ/1930م يعتز بأصالتهم وقدم ملكهم في البلاد.

(البحر الطويل)

ونقش الحباري (*) في صفي صخورنا يتيف على (حاء) المئين وأكثرا

وكانت مجموعة تندغه ، لما لها من مقوّمات سامية ، وسعة في المال ونفوذ سياسي وأقتصادي وروحي ، تنزع إلى التوسّع والهيمنة بأستقطاب الكثير من القبائل وإدماجها . من ذلك ما كان من أسباب أنشقاق « اركاكه » عن فصيلتهم المجلس ، وأنضمامهم إلى تندغه في الحين الذي كانت فيه نيران الحرب تستعر بين قطبي الزوايا آنذاك ، المجلس وتندغه ...

تقول الرواية الشعبيّة: إنّ طرفي النزاع قرّرا هدنةً ، وكالعادة تبادلاً ما يسمّى بالحسّانية (بالمنازلة) ، وهي الرهينة المودعة عند العدوّ ، ضمانًا لاستمرار الهدنة التي لا تنقطع إلاّ بإشعار رسميّ ، وكما كان معهودًا في الأعراف الحربيّة ، سلّم المجلس تندغه فتى عزيزًا منهم آسمه « أركان » لإقرار الهدنة ، لكن المجلس خلافًا لمواثيق العهدة ، هاجموا تندغه بدون سابق إنذار ، مضحّين بأبنهم المرهون ، فأستهجن « أركان » ذلك التصرّف وأستاء منه ، فقال قولته المشهورة والتي آنتحل منها آسم مجموعة « أركاكه » (ركهوني) بمعنى سلموني للاسترقاق ، أي أهانوا كرامتي ، فأنسلخ من المجلس وأنضمّ إلى تندغه بحكم التعصّب والانخراط في سلكهم .

أخذت مجموعة تندغه طريق الاضمحلال لأسباب ، وذلك من بداية عهد المغافرة . لا شكّ أنّ آنكسار شوكة تلامذتهم أولاد رزڭ ، ثمّ أولاد امبارك ، أضعف من معنوياتهم وتأثيرهم ومسّ من مصالحهم الحيويّة . ونحن نعرف أنّ تغلّب المغافرة واكبه توازنٌ جديدٌ . فبدأ أحفاد تندغه يتسلّلون لواذًا بحثًا عن طريقهم إلى الاستقلال والعزّة والكرامة ، فأنشقّ عنهم أكثر القبائل التي كانوا يأوونها ، أولاد « إيير » و« إداب لحسن» . أمّا تشمش القوة الجديدة في مجتمع الزوايا ، فلم يخرجوا من قبضة المجلس للانضواء تحت لواء تندغه بل أكّدوا عكس ذلك بتأسيس حلفهم ودولتهم ، ولا نجازف بالقول إذا لاحظنا أنّ بداية

ويقال إنّه من أحداد الصّالح سيد ميتور بن أبي الصّالح [37] فلمّا جاءه قال له : إنّما أرسلت إليك لأتوسّل بك [38] لعلّ الله يشفيني . فقال له :

آنحطاط دولة تدغة صادفت آستفحال أمر تشمش ، وآنطلاق نهضتهم الدينيّة والأخلاقيّة والعلميّة . كما أنّ آنكسار شوكة تشمش بسبب هزيمتهم في حرب شربه مهّد الطريق لظهور آستعلاء شأن بعض القبائل الزاوية في القبلة ، مثل ادولحاج الذين أصبحوا يكوّنون في بداية القرن 11 حسب المراجع الأوروبيّة القوّة السياسيّة الثالثة ، بعد الترارزة والبراكنة .

ولعله أيضًا من أسباب آضمحلال المجموعة التدغية آنعكاسات السياسة الفرنسية ، التي ما فتئت تمنع قيام الأسواق الأرويّة على شواطىء المحيط حيث يتأصّل التواجد التدغي منذ فجر التاريخ . وهذا العامل الاقتصادي له دوره الخطير في إفقار منطقة السواحل وإثراء النهر وزعامة الزوايا فيه لايدولحاج آنذاك .

لم يدم هذا الارتخاء الذي أصاب تدغة ولم يتناول كثافتهم الحضاريّة والبشريّة ، بل آطّرد نموّهم ، وكثرت أعدادهم ، فتشعّبوا إلى ستّ قبائل هي : اركاكنه ، وحلة أربعين جوادا ، وإشْكانن ، والمتلونة ببطونها الثلاث ، وهم : إجواج ، وادكَيال ، واندبج كِرار، وإدكفوديه ، وإيذغماچك، ولمركمه ، منهم أهل إكدَيْج ، وأهل محم عبدي ، وتدغه البيظ ، هم أهل سيد المصطفى ، وأهل اعمرنلّ ، وأهل أبجه ، وأهل بوبلال . ينتسب إدكفوديه إلى الشرف بفصائلهم : أهل اعمر اكديج، وأهل إكديجي ، وأهل محمّن الصديق ، وأهل أحمذن أبوبك ، وأهل فوديه . يقال في آصطلاحهم ، أنّ فلانًا من « ظهر إزبلك » من الربقة ، أي انه صحيح الانتساب إلى السلالة التدغية .

يعني بها على الخصوص « إشكَانن » ، وحلّة أربعين جوادا ، وأهل سيد المصطفى ، وأهل اعمرنل ، وأهل أبيجه ، وهم ينتسبون إلى عبد الله بن « إكَرَى » ، وهو فيما يقال أنّه آبن أخي أبي بكر بن عامر الصنهاجي اللمتوني .

وأمّا من كان من « الربقات » فآنتسابه إليهم لا يكون بحكم الانتساب العرقي ، بل آنتساب بحكم التعصّب والائتلاف ، وتدغة هم الأقدم في القبلة ، بدليل قول النابغة الغلاوي :

« وآعلم بأنّ الأرض أرض تدغا ومن أراد سبقهم فقد بغى »

(36) « إركاكنه » إحدى قبائل مجموعة تدغه التي هي موضوع مادة الهامش السابق . ينقسم اركاكنه إلى البطون التالية: أهل بوحبين ، وأهل مختار الله ، وأهل اكدياي ، وأهل اكدبوبك ، وأهل بوتي ، واهل إبگران ، وأهل أكد العم ، وأهل أبي صنب ، وأهل محم ولد أعمر .

(37) الصالح سيد ميتور بن أبي الصالح ، آشتهر بالصلاح ، وهو من أهل أكد العم من أركاكنه ، من مجموعة تدغه ، وفي الذهب : أنّ اليدالي أخذ سلسلة المشابكة عنه .

(38) جاء في النسخة المطبوعة (لأتوسل إليك) ، وآستصوبنا إبدالها (... بك ...) كما ورد في نسخة (ب) .

لا أنفعك ، إنّما أتيت من قبل القوم الذين أغرت عليهم مرارًا فَرُدَّ إليهم أموالهم . فأرسل الخليفي إلى تشمش أن يأتوا ليذهبوا بأموالهم ، فأبوا أن يأتوه . فقال التندغي للخليفي : أرسل إليهم أموالهم إذ أبوا ، فأرسلها إليهم وبرىء هو ... فعند ذلك نصر الله تشمش وآرتفعت درجتهم في أولاد رزك ، وهم عرب البلد حينئذ وأنذروا عليهم ولا يسوم أحدهم جانبهم بسوء بعد ذلك .

« ثمّ إنّ مالك (39) جدّ « اجغماجك » لم يزل يرسل إلى أخيه يدمس (40) في أثناء هذه الغارات أن يأتيه ليردّ إليه ماله عند الخليفي ، وكان مالك ناجاه عند الخليفي ، لأنه صاحبه ويؤدّي له المغرم .

وكان يد مس قبل توبته في رهط من تندغه ، هو وأخوه مالك حتّى طرقا ليلةً محلّة المجلس مع أصحابهما متلصّصين يريدون أن ينهبوا شيئًا من أموالهم ، وذلك زمان الحرب بين المجلس وتندغه ، فآتّفق أنّ مرّ يدمس في تلك الليلة بجدّاداچفغ ، ومهنض أمغر متهجّدين ، قائمين اللّيل ، فآستمع قراءتهما فوقعت التوبة في قلبه حينئذٍ ، فجلس مع الشيخين وتخلّف عن أصحابه . ثمّ إنّ أصحابه أخذوا غنيمة ، فرجعوا إلى يدمس فراودوه أن يمشي معهم ، وأخبروه بغنيمتهم ، فأبى وتركوه مع الشيخين .

---

(39) مالك ــ مَاچك ، جد إچغمَاچك ، وهي إحدى قبائل المجموعة التندغية . وماچك هذا ، أو مالك ينتمي إلى تندغة بحكم التعصّب ، فتحمله للمغرم « لأولاد اعليفه » وتعاطيه للتلصّص ، ثمّ توبته ، كلّها أدلّة قاطعة على عدم انتسابهم عرقيًا إلى تندغة ، وتندغة يحرصون عمومًا على إثبات أصالة ايجغماچك للتندغية ، وهي كثيرة العدد والمال ، جمعت بين السماحة والعلم والجدّ في العمل للدنيا والآخرة ...

عاش حرب تندغة والمجلس ، آخر القرن الثامن الهجري ... بطون اچغماچك : أولاد أعمر ولد مالك ، إدَوْدنْبج ، وإدَوْدَانان ، وادغبهنض ، وأولاد بوخيار ، وأهل أبابك ، وأهل احمذن اعديج ، وأهل آبير ، ينسبون أنفسهم إلى ادِ وعلي .

(40) يدمسْ بن عامر بن بهنه ثالث أجداد تشمش الخمسة وهو أخو ماچك حسبما ورد في النصّ . ويقال : إنه أخوه لأمّ .

ورويناا [41] عن الصّالح مَيْثُور بن أبي الصالح عن اتشفغ عبد الله بن محمد [42] بن المختار بن ابهنض أوبك عن عمّه أحمد أكذ[43] المختار أنّ عسكرين من أهل التلّ تحاربا وغلب أحدهما الآخر ، فسأل عريف المغلوبين عاقلاً في ذلك الزمان : ما سبب غلبهم ؟ فقال له العارف : لعلّك غيّرت خاطر مسلمٍ ، لم يغير أحد خاطره إلاّ هلك ، فقال : كيف أعرفه ؟ قال له : إن أردت ذلك فأنشر بساطا وأمر أهل إقليمك أن يأتي كلّ واحدٍ منهم بتمرةٍ فيطرحها في ذلك البساط ، وأمرهم أن يأخذ كلّ واحدٍ تمرته التي جاء بها ، فأمر بذلك ... حتّى لم يبق أحد إلاّ فعل ذلك ، ثمّ أمرهم أن يأخذ كلّ واحدٍ منهم تمرته التي جاء بها ، فجعل كلّ واحدٍ منهم يأخذ

---

(41) جاء في النسخة المطبوعة : « على ما تلقيناه من أسلافنا أنّ أصلهم من قرية يقال لها : تارودانت ، ثمّ أتّفق أنّ عسكرين » . وأثبتنا في المتن النصّ الأكمل كما ألغينا عنوان هذا الفصل : فصل في بدء أمر تشمش لأنّه لا يناسب فحوى النصّ .
وهو تنكيس كثيرًا ما يقع في بعض النسخ تقديمًا أو تأخيرًا .

(42) اتشفغ عبد الله بن محمد بن المختار بن ابهنض اوبك من اداجفغ رجل اشتهر بالصلاح ، فتوفيّ حسبما في الفشتالية سنة 1103هـ/1691م .
يقول سيد عبد الله :
لقد كان عبد الله في العلم (باشقا) بعيد شريدات العلى بالتّل

(43) أحمد أكِذ المُختار بن الشفغ أوْبُكْ بن أيبال بن بدّيال يعقوب جدّ أولاد حين من اداجفغه توفي عام انيتام 1040هـ/1630م ، دفن بإدْضَيْجَ الواقع في الجنوب الشرقي من أنواكشوط على بعد 80كم تقريبا .
اشتهر بالعلم والجاه والصلاح ، قال ناصر الدين فيه : « صاحب القبر يصلي » كان سندًا في التاريخ والرواية ، أشتهر بالعلم والجاه والصلاح ، أستخلص أسرى بني ديمان من تنكِلل قال الفالل بن باب أحمد : إنّه تعلّم العلم أوّلاً ليكون عالمًا ، وثانيًا ليصاهر أحمد إكِذ المختار ، وثالثا لوجه الله ، والفالل امْباب أحمد من أعظم أقطاب أولاد ديمان ، ومن مشاهير الزوايا في زمنه لعلمه وحكمته وغناه ومكانته الاجتماعيّة والسياسيّة المرموقه في بني ديمان ، الدليل على ذلك عظمة صهريه : الفالل امْباب أحمد واتشفغ الأمين الفاضلي .
وأرّخ الأديب امحمد بن أحمد يور لوفاته ووفاة غيره من المشاهير مثل عبد الواحد ابن عاشر ، بقوله :

شِم برقَ ثاو لدى وادي الطُّوتِ ومن	سلا بأخراه عن دنياه عند (سلا)
وبلّ والفاضل الكوري «شقٍّ» بنا	ذاك الرحيل للذي الله قد رحلا

تمرته ثمّ ينصرف ، حتّى بقي خمس تمرات وخمسة نفر ، فقال للنفر الخمسة : لِمَ لم تأخذوا تمراتكم ؟ قالوا : لأنّا لا نعرف تمراتنا بأعينهنّ فنأخذها ، ونحن لا نأخذ ما ليس لنا ، فلذلك لم نأخذ شيئًا .

فحينئذ قال العاقل للعريف : إنّما أتيتم من قبل هؤلاء النفر الخمسة فلعلّك غيّرتهم ، فطيّب خواطرهم ، ولا تقرب ساحتهم أبدًا ، ففعل ذلك ، فغلب (أصحابه) ، فمن ذلك اليوم رفعوا عنهم الظلم ، وآرتفعت مراتبهم ، وهؤلاء أجداد تشمش .

2 ــ فصل في بدء أمر تشمش

على ما تلقّيناه من أسلافنا أن أصلهم من قرية يقال لها « تارودانت » [44] [...] [45] خرجوا منها إلى آدرار [46] في قرية منه يقال لها : آيِر[47]، ثمّ

---

(44) قرية من أعمال السوس في جنوب المغرب .

(45) [...] ما بين المعقوفين هو نصّ المتن السابق في أمر العريف والعاقل والتمرات وتشمش ... كما ورد في النسخة المطبوعة ، ولا يستقيم المعنى على هذا الترتيب ، فآعتمدنا ما ورد في النسخة (ب) ، فتصرّفنا هذا التصرّف لاستقامة معناه ، وآنسجامه مع سياق الحديث .

(46) آدرار ، مدلول جغرافي بمعنى (أدْرَر) : سلسلة الجبال ، أو بمعنى المرعى في بعض لهجات البربر ، وآصطلاحا هي المنطقة المتاخمة للقبلة شمالاً الممتدّة إلى البلاد الأزمورية ، وهي أهمّ معاقل الحضارة الإسلاميّة وأقدمها في البلاد الشنجيطيّة ، كانت فيما قبل مأهولة بأنواع مختلفة من البشر ، سودان وبيض ، من هؤلاء البيض شعب بافور من يهود وادنون ، قيل : ويطلق آسمهم على الإقليم في العهود القديمة . ثمّ تأسّست دولة المرابطين الإسلاميّة ، وآتخذت من آدرار معقلا ، خصوصًا بعد عودة أبي بكر بن عمر في شعبان 480هـ/1087م من المغرب بقصد إثبات دعائم الدولة الإسلاميّة التي زعزعت أركانها مقاومة الوثنيّين من السودان ، وخلافات صنهاجة المزمنة . من بين الرجال الذين أتى بهم من الشمال : الإمام الحضرمي من أغمات ، عيّنه قاضيًا ووالبًا على المنطقة التي كانت آنذاك عاصمتها «آزوكّي» ... قام الشريف الإمام الحضرميّ بواجبه على أكمل وجه أقام شعائر الدين تعليمًا وتنظيمًا ، وزرع بذره تعريب البلاد التي آندفعت في نموّ مطّردٍ وشاملٍ ، وصعَّد حملة الدعوة الإسلاميّة ، وواصلها إلى أن مات 489هـ/1096م في مدينة آزوكّي ، وما حدث في القبلة من تقلّبات بحكم هجرة العرب ، وتجدّد أطماع السودان في السيطرة عليها ، والتغلغل الأروبي إلى عمقها ، ومضاعفات كلّ ذلك الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة ، وقع في آدرار في شكل مطابق تقريبًا ، وكأنّه في وقتٍ واحدٍ .

لكن آدرار ، بحكم موقعه الجغرافي كان ملتقى الطرق المؤدّية إلى المغرب ، ومحطّ ركاب رواد الدعوة الإسلاميّة الذين اتّخذوا من التجارة أنجع وسيلة لأداء واجبهم ، فالصراع شديد بين الطرشان وأبناء يحيى بن عثمان ، كما كانت الحالة في القبلة بين قبائل العرب صراعات دامية على السلطة ، ممارسات عنف وطغيان تستهدف الزوايا وباقي الطبقات المستضعفة ، إلى أن تأسّست إمارة بني حسان ، وأمتدّ نفوذ ملك مالي سوني بن عثمان ، وأستتبّ له الأمر على آدرار عبر تكهانات في القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي .

وتغلغل البرتغال في عمق الإقليم حتّى وادان التي أصبحت سوقًا مزدهرة (851هـ/1448م)، ومركزا بالغ الأهميّة للتجارة في غرب الصحراء . والوجود البرتغالي في وادان لم يكن لولا تعاونهم مع صاحب السيادة في المنطقة سوني علي ملك مالي .

ملاحظة أخرى ، وهي أنّ حظّ آدرار في الأخذ بأسباب التمدّن والعمران كان أوفر بكثير من حظّ القبلة التي بقيت منطقة رعوية مأهولة بالبدو الرحّل ، لا يعرفون القرار ، بينما بلاد آدرار عرفت التمدّن منذ عهد بعيد .

فآزوكّي ومدينة الكلاب وغيرهما من المدن كانت قائمة قبل عهد المرابطين ، ثمّ جاء بافور من السوس فغرسوا النخيل ، وأحكموا قواعد زراعة الريّ ، وأدخلوا معهم الخيل ووسائل تنميتها . ومن بعد المرابطين تأسّست مدن آشتهرت فيما بعد بدورها الحضاريّ والثقافيّ والاقتصاديّ ، منها وادان التي بناها ابدوالحاج سنة 536هـ/1442م وآبير أوشنقيط الأولى المبني 160هـ/776م وشنقيط الثاني بناها ادوعلي والاغلال 660هـ/1302م كانت هذه المدن مخبرا تفاعلت فيه المقوّمات الحضاريّة للعناصر المتواجدة فيها ، من صنهاجة وعرب وزنوج ويهود وبربر ، تمخّض هذا التفاعل عن مزيج حضاريّ مركّب طريف ، له مميّزاته الخاصة وقيمه الإسلاميّة الأصيلة ، تغلّب على بيئته القاحلة بإرادته الفولاذيّة ، ففجّر الينابيع من الصخور ، وأنبت فيها أزهى واحات النخيل ، وأجمل البساتين ، وأغنى الغلات الزراعيّة ، لم يستسلم لعتوّ الطبيعة ، بل آحتال عليها ، فطوّعها حتّى جادت بكلّ كنوزها ، وآستسلمت له طائعة ... أمّا في المجال الحضاريّ ، فدور آزوكّي وآبير وشنقيط ثمّ أطار ، فهو معلوم غنيّ عن التشهير ، يكفي أن نتذكّر بأنّ سبب إطلاق آسم شنقيط على الإقليم الموريتاني يرجع إلى شهرة علماء هذا البلد ، الذين آكتشفهم المشرق العربي بعد لأي في منابر العلم ومواسم الحجّ ، فآندهش وكأنّه لا يصدّق ما يراه ويسمعه ، لتواضع المظهر وعلوّ المخبر ، وعمق المعرفة وسعتها ، وسموّ الأخلاق وحسن الاتّباع .

تكوّنت في آدرار منذ عهد مبكّر أسس حضارة راقية متكاملة المقوّمات ، ما كان منها ماديًّا ، زراعة وتنمية وصناعة وعمران مدني ، ومنها ما هو ثقافي ، تعمّق وتكاثف ، حتّى فرض وجوده ، فأثبت جدارتها في أنحاء العالم الاسلامي ...

من أسباب قيام هذه الحضارة في هذا الإقليم القاحل ، أنّ السكّان الأصليّين كانوا متمدّنين

خرجوا منها إلى القبلة متفاوتين في الخروج ...

وسبب خروجهم أنّه لمّا وقعت الفتن بين أهل آدرار وكثر الهرج فيه [48] ، خرجوا منها هاربين من الفتن ، ثمّ إنّ أوّل من قدم منهم إلى القبلة يدبيال [49] يوقب ، جدّ إداچفغ ، وذلك أنّه لمّا وقعت الفتن بين أهل آدرار ، وكان من أهله خرج من قصره [50] هاربًا من الفتن ، هو وأخته وزوجته حاملاً كتبه على حماره ... فلمّا شخص من القصر إذا فيلٌ باركٌ عليه سرج ، فحمل عليه كتبه ونساءه ، فتوجّهوا نحو القبلة حتّى قدموا على أحياء المجلس ، فوجدوهم في تيرس ، فلمّا قاربهم [51] برك الفيل وتركوه ودخلوا المجلس وآستوطنوهم ، وتزوّج الشيخ منهم .

ثمّ قدم عليه أتْشفَغْ مَهنْضْ أمْغَرجد أولاد ديمان ، وتزوّج بنت الشيخ ، وقيل : تزوّج مجلسيّة بعد أن طلّق زوجته ، وهي أمّ أتشفغ موسى [52] بن

بالطبع ، أنشأوا حضارةً زراعيةً وفّرت القاعدة المادّية للتمدّن ، والقبائل التي تواجدت في الإقليم بحكم الهجرة آنسجمت مع البيئة ، فالزوايا ، وهم السماسيد ، وايدولحاج ، ثمّ الأعلال وايدوعلي، كانوا معدّين فطريا لتبنّي مقوّمات هذه الحضارة وإثرائها .

أمّا بنو حسّان أصحاب السيادة السياسيّة بحكم التغلّب ، فأكثرهم فضّل نظام الحياة البدويّة المتصعلكة خوف أن تلين قناتهم بضعف عصبيّتهم بآقتناء أسباب الترف المدنيّة ... وتضاريس الأرض تساعد على قيام المدن ، فجبالها الوعرة تحصّنها من هجمات الغزاة ، فلا يستطيعون الوصول إليها إلاّ من منافذ ضيّقة يحميها نفر قليل من الناس ، ولا شكّ أنّ وجود مياه جوفيّة عذبة على عمق ضئيل مهّد النموّ لتلك المدن ، وآزدهار الزراعة فيها خاصة واحات النخيل ومشتقّاتها .

(47) آبير ، هي شنقيط الأولى ، تأسست سنة 160هـ على مقربة من شنقيط الحالية .

(48) في النصّ المطبوع : كثروا ، والأقوم عندنا كثر الهرج .

(49) تقرأ حسب النصوص : إيدَيْبال ، أو ايدَيْباخ ، ولا فرق بينها .

(50) القصر هنا بمعنى القرية .

(51) « فلمّا قاربوه » في النسخة المطبوعة وردت العبارة المثبتة هنا في النسخة (ب) .

(52) اتشْفَغ مُوسى بن اتْشفَغ مَهنْض أمغر ، بداية القرن التاسع الهجري . جدّ بني ديمان بن يعقوب ، محنض ويوقب انل اللذين ، آنحدرت منهما فصائل بني ديمان في مدلولها العرقيّ .

أنتشفغ مهنض أمغر ، وهي امرأة من « إدكشذك »[53] قبيلة زاوية قديمة بالمغرب .

وتلقّينا من أسلافنا أنّ انتشفغ موسى هذا لمّا ولد تكلّم حينئذ ، فقال : قال مالك[54]: فهربت[55] القوابل عنهما ، وقالت أمّه بعد ذلك لهن : لو لم تهربن لأخذتنّ تلك المسألة من ذلك الوليد . وقال الراوي ، أظنّ أنّها قالت لهن : وتلك المسألة في شأن الولادة . وقالت لهن : أنا تاسعة تسعة مصاحف في بيت أهلي ، تعني والله أعلم ، أنّها تاسعة حفّاظ القرآن في بيت أهلها .

ثمّ قدم عليهما يدمس فتزوّج أخت ايْدَاْيَاجْ[56] يَعْقُوب ، التي قدم معها من آدرار ، وقيل : تزوّج مجلسيّة أخت زوجة الشيخ ايْدَاْيَاج .

---

(53) « ايدْكِشْذَكْ » ، قال اليدالي : قبيلة زاوية قديمة بالمغرب ، في المشهور أنّها من المجلس ، وورد اسمها في أنساب والد محرّفًا « اكد كشذك » ، يقول : إنّها من قبيلة صلاح ، كانت في القبلة وآخرهم فتى يقال له : احبيب بن سير ، كان في أخواله بني يعقوب ، وممّا هو متواتر أنّ بيتًا فيه أحدهم لا تصيبه صاعقة ، وأنّ موضعًا فيه أحدهم لا يناله غضب مطلقًا .

(54) مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر الحارث الأصبحي الحميري . ولد عام 93هـ/711م ، وأخذ العلم عن فقهاء المدينة ، وغيرهم ، وعن نافع مولى ابن عمر ، والزهري ، وزيد بن أسلم ، وربيعة ، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، وابن حازم ، وأيوب السختياني ، وجعفر الصادق ، وكان إلى جانب الفقه عالمًا بالكتاب والسنّة ، فاق أقرانه في كلّ الميادين ، قال البخاري ، أصحّ الأسانيد مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ، ألّف كتابه الموطّأ ، ورواه عنه خلق كثير . وقد أخذ عنه العلم رجال كثيرون ، نذكر من بينهم : الإمام الشافعي ، وابن القاسم ، وابن وهب ويحي بن سعيد القطان ، وأشهب ، ومعن بن عيسى ، وعبد الله بن مسلمة وغيرهم . ويرجع أصل مذهبه إلى آرائه المنقولة في المدوّنة والأحاديث التي رواها في الموطأ ، مذهبه منتشر في المغرب وإفريقيا . مات سنة 79.هـ/795م .

(55) في النسخة (ج) ، وردت : « فتفرّقت القوابل » ، أثبتنا مكانها فهربت ، والمعنى واحد .

(56) في النسخة المطبوعة فكان ، والصواب فكانا (يداج ومهنض مغر) .

ثمَّ قدم على الثلاثة يِدَّاجْ أُكُدَ بَرْغه جدّ إِيدَ وَيِدَّاج فتزوَّج بنت أَشْفَغْ مَهَنْض أَمْغر ، وقيل : تزوَّج مجلسيه شقيقة زوجة الشيخ أَشْفَغْ مَهَنْض أَمْغر ، ثمّ قدم على الأربعة خامسهم أَبهنْضَامْ جَدّ ذوي يعقوب ، فتزوَّج مجلسيَّةً لم تكن من أكيد قرابات زوجات الأربعة ، فلذلك كانوا ناحية من تشمش.

قيل : إنَّ يِدَّاجْ تزوّج بنت أَشْفَغْ مَهَنْضْ أَمْغر ، وقيل : تزوّج شقيقة زوجته . فكانا يدًا [56] واحدةً دون سائر تَشُمْشَ ، تزوّج يدمس أخت الشيخ يِدَّابيَاجْ ، أو شقيقة زوجته ، فكان يدًا واحدةً دون سائر تَشُمْشَ ، وتزوَّجَ أَبِهنْضَامْ آمرأة فرديَّةَ فلذا كان ناحية، وهؤلاء النفر الخمسة هم أجداد تَشمش الخمسة .

3 ــ تشمش في ظل « أولاد رِزْكْ »

وبهذا الإسناد أيضًا أنَّ زمان أولاد رِزْكْ [57] جاء أُودَيكَ الأَقْرَع الانباركي [58] إلى تَشُمْشَ وقال لهم : من أنتم ؟، فقالوا له : نحن المعتقون قال لهم : لا معتق اليوم !، ثمَّ طلب منهم المغرم ، فأعطوه حلّة ، وترك عندهم رمحه دليلًا على أنّهم غفره ، ثمَّ أتاهم أَحْمد بْنُ دَامَان [59] فقال

(57) وقتح أولاد رزكْ عبارة عن هزيمتهم النهائية يوم انتيتام 1040هـ/1630م وأمراء المغافرة في ذلك اليوم ، أحمد بن دامان على الترارزة ، ونغماش بن امحمد على البراكنة ، وأوديك الأقرع على أبناء الفحفاح (امبارك ولغويزى) .

(58) أوديك الأقرع رئيس أولاد لغويزى ، بني عمّ أولاد امبارك علمًا لأنَّ لغويزى وامبارك أخوان ، وهو أوديك بن البيك بوكرن ، قتله القيرع ولد العفني بن أحمد بن عبد الجبار بن كروم بن ملّوك بن بركن (1050هـ/1640م) وكان ذلك يوم « اكيرت » ، وهو معاصر لأحمد بن دامان المتوفى سنة 1047هـ/1637م .

(59) أحمد بن دامان بن تروز بن هداج بن عمران (بن عثمان) بن مغفر ابن أوديْ بن حسان ، هو سابع إخوته : عثام ، وساس ، وعبل ، واكمتار ، وزنون ، وامحيمدات ، وهو مؤسّس إمارة الترارزة، وقائد معركة التحرّر ضد البراكنة ، وحامي حمى القبلة ، بإبعاد لعروسين وغيرهم من لصوص التلّ ، بنى ملكه على أساس العدالة والتعاطف مع المستضعفين في

لهم : من أنتم ؟. قالوا : نحن المعتقون . فقال لهم ، كلّ من أعتقته أولاد رزگ فنحن نعتقه ، ولكن ارحلوا نحو الساحل لئلاّ يمرّ بكم أوديك الأقرعُ فيسومكم بما لا تقبلون ، وهو لم يعلم بمروره بهم ، ولا أخبروه بما أعطوه ، ثمّ رحلوا نحو الساحل .

وروينا عن مُحَمَّدْ بن حَبيب بن خَيْر (60) عن ألفغ الْمُصْطَفَى بن أبي عَبْدِ الله أنّ أوديك الأقرع جاء بعد ذلك إلى بني يعقوب (61) عند تنجو (62) يلتمس منهم المغرم ومعه كثير من الزرع واللباس وطبغ ممّا جمع على الزاوية وغيرهم ، فتقدّم له أَحْمَدْ دَوْلَه (63) بعدم قبول المغرم ، وأبى هو إلاّ المغرم أو الغارة ، فسرى تلك الليلة ألفغ الْمُصْطَفَى المذكور وَحَوملّل اليَعْقُوبِي وكان خريتا ، وباتوا يجمعون أطراف أحياء بني يعقوب حتّى صبّحوهم عند حلّتهم . فقال أَحْمَدْ دَوْلَه للفقيه حِبيبِ الله بْنِ يَعْقُوب : ما نفع لساني شيئًا في هذا الجائر ، فقد توسّلنا بك إلى ربّنا فيه ، فاتّفق أن جاء نَذِيرٌ لأديك من عند أهله بأنّ أولاد الزناكيّة (64) ضيّقوا عليهم ، وركب حينئذ وترك متاعه عند الفقيه حبيب الله بن يعقوب ، ولحق بجيش

الأرض الزوايا ، منهم على الخصوص ، وسنّ لإخوته سنًّا جديدًا في المعاملة مع الطلبة ، مبناه الاحترام والتقدير وبذل المال لهم ...

(60) محمد بن احبيب بن خير ، من « ادكبهن » من بطن أهل أحمدن ابهض ، شارك في وقائع شربيه وروى عنه اليدالي ، وهو حسب هذه المعطيات ، يروي عنه وهو في آخر عمره .

(61) بنو يعقوب ، خامسة قبائل تشمش المنحدرة من ابهنضام بن محمد بن يعقوب الجامع ولد سام ولد اعبدل ولد أعمر ولد حسان ، تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين : أهل باركل وايديقب ، تتشعّب كلّ منهما إلى بطون متعدّدة .

(62) تِن إنْجْوْ بئر قبيلة تِجْوْ السودانية على مقربة من المحاظ في الشمال الشرقي منه على بعد 3كم تقريبًا .

(63) أحمد دولة : من إدودام من بني يعقوب ، معاصر لأوديك الذي عاش حتى أواخر المنتصف الأوّل من القرن الحادي عشر هجريًّا .

هو الذي يعني الشيخ محمد اليدالي بقوله : « وأحمد الدولة رأس المجلس ... » .

(64) أولاد « الزناكية » هم الترارزة ، والبراكنة ، وأبناء يحيى بن عثمان .

أهله ، ووقع يوم « أكَيْرت » [65] ، فقتل أوديك فيه ، قتله الأقرع ولد العفن وكفى الله تشمش جوره وظلمه إلى الآن والحمد لله .

وهكذا سنّة الله وعادته في تشمش وغيرهم من الصّالحين ، أنّ كلّ من أراد أن يسومهم بسوء كفاهم الله شره ، فإنهم كانوا في بلادهم مع الأنباط [66] فجاروا عليهم ، فنفاهم الله عنهم ، وبقيت تشمش في بلادهم ، ثمّ خلفهم أولاد زرك ، ثمّ أولاد « عكْبه » كذلك ، ثمّ أولاد داود [67] بن عمران كذلك ، ثمّ إنّا نحن الآن في مغفر، والله المستعان .

---

(65) أكَيرت ، باللغة الصنهاجيّة ، هو الغور ، بالتصغير ، كانت به الواقعة المشهورة بين أولاد امْبارك بزعامة أوديك الأقرع ، وأولاد الزناكية ، (البراكنة ، والترارزة ، واحووات) ، واكيرت تقع شمال قرية صنكْرافة على بعد 12كم وصنكْرافة تقع على بعد 30كم شمال شرقي مقطع لحجار في المقاطعة الشماليّة من ولاية البراكنة .

وكانت هذه الواقعة بعد انتيام بأعوام قلائل ، منها بدأ نجم المغافرة يعلو ، وأخذ عهد أولاد امْبارك يتولّى ويتلاشى في القبلة إطلاقًا .

(66) الأنباط أزناك : تطلق على طبقة النبلاء من القبائل الصنهاجيّة ، وعلى الخصوص لمتونة منها . هم النقباء أصحاب الرأي والزعامة ، من ذلك فلان انبط بالحسانية ، أي زعيم بطل مجرّب . ومن بقاياهم اليوم تغرْچنت في الجنوب الغربي من ولاية الترارزة .

(67) أولاد داود بن عمران بن عثمان بن مغفر بن أدي بن حسان ، بطن من بطون المغافرة التي بادت وأنمحت معالمها مثل أولاد اخليفه ، والمجموعات التي شاركت في شربه (يوم انتجي) أكلتهم شربه . أولاد عكْبه وأخواه يونس وداود أبناء اعروكْ بن أودى بن حسّان .

مرّوا مرور الكرام بالقبلة ، فأبعدهم أولاد ازناكية عنها ، فأستوطنوا جنوب الحوض ومالي حيث أسّسوا مملكةً قويةً حتّى أطاح بها أولاد لغويزي (أولاد اللبّ ولد يوسف) ، أمّا أولاد يونس فقد اتّخذوا من ولاتة قاعدة ثانية لملكهم ، وأسّسوا بها قلعة للعلم ، تخرّج منها الكثير من فطاحل العلماء ، مثل الحاج لحسن بن أغبد ، ومحمد يحيى الولاتي ، وغيرهم ، ولم يشغلهم العلم والتّعليم وممارسة شعائر الدين والمحافظة عليها والسعي من أجل الاكتساب عن إعداد العدّة للدفاع عن حوزتهم وكرامتهم وسيادتهم على البلد ، من ذلك قتلهم للطاغية شنان بن إبراهيم العروسي سنة 1040هـ/1630م في أيّام مولاي عبد الملك السعدي ، عندما نزل بولاتة ، وبنى بها قبّةً ، وأخذ يجبي الضرائب ، ويفرض المكوس على الماء والحصباء البيضاء والحطب وغير ذلك ، فأضرّ بهم ضررًا بالغاً حسبما جاء في الحسوة البيسانيّة . فآحتالوا له إلى أن قتلوه كما هدّموا « تازغت » وهي تيزغت بالعامية ، التي كان لرؤسائها مغرم على أهل ولاتة ، كانوا يعانون من سوء معاملتهم وضررهم البالغ .

ثمّ إنّ الفقيه حبيب الله أرسل المتاع الذي تركه عنده أوديك إلى أهله ، ولمّا نعي أُوْدَيْك إلى زوجته وآسمها كُرطوفة [68] ، طلعت على شجرة من الشجر المسمّى بالعجمية « تيشط » [69] عند (انساغيار) [70] وأولاد أمبارك حينئذ هناك ، فبكت عليه وناحت ، وكانت تلك الشجرة بعد ذلك تعرف بـ« تيشطايت كُرطوفة » .

وبالسند المتقدّم أيضًا ، أي السند إلى أحمد أكُدْ المختار أن ساس [71] آبن دامان أتى تَشُمْشَ عند « أكْيْنِتْ » ، وقال لهم : إنّ عندي حوائج ثلاثا حلّة ، ومزود زرع ، وشيئًا من طبغ فآقضوهنّ لي .. فقام أتشفغ أوبك [72]

وآنتظم أولاد داود شمال الحوض على أنقاض دولة أولاد يونس ، تأمّر منهم أولاد زيد . ثمّ إخوتهم أولاد علّوش الذين آنشقّ منهم أولاد بوردّه ، وآستقلّوا بالرئاسة الدينيّة والسياسيّة ، من علمائهم المشهورين : محمد يحيى الولاتي 1330هـ/1911م ، وإخوته وأعمامه .

(68) كرطوفة : زوجة أوديك الأقرع ، رئيس أولاد امبارك المقتول يوم « أكْيرت » في عشر الخمسين من القرن الحادي عشر هجريًا .

(69) تيشط : الهليلج (ذو القليج .

(70) «إنساغيار» بئر في العربة شرقي تلماس على بعد 2 كلم منها، وفي طرحته « تقع » تيشطايت كرطوفة المذكورة في النصّ .

(71) ساس بن دامان أخو أحمد بن دامان المتوفّى كما مرّ بنا حوالي سنة 1047هـ/1637م ومن المعلوم أنّ أحمد كان أصغر إخوته ، وأخوه ساس هو أكبرهم .

(72) أتشفغ أوبك التامكلاوي: ولد أتشفغ أمكر ، جد ناصر الدين من جهة الأمّ ، وهو من قبيلة تمكله ، يرفعون نسبهم إلى بني العبّاس ، آستوطنوا البراكنة ، في جوّ أخوتي مع اجيجب وادكجمل ، أمّهم من أهل الشفغ ابريهم ، آسمها تامكليت، جاء أتشفغ أوبك إلى هذه البلاد صحبة محنض بن بديمان الذي آستصحبه ليؤمّنه من عصابات اللّصوص ، ثمّ آستبقاه معه لتعليم أبنائه وأبناء أخيه يوقب نل ، وطال عمره حتّى علّم أبناء الكورى ولد سيد الفال المتوفّى سنة 1112هـ/1700م ، تزوّج بنت محمد ساعيد بن تكِدْ ، وماتت عنده ، ثمّ تزوّج احشذ بنت يعقوب نل بن بديمان ، رغم عدم رضى باب أحمد بذلك الزواج ، كان له من أحشذ أولاده الستة : محنض ، وأجود ، والمختار ، وأبو يزّيدن (القاضي) ، ويعقوب نل ، وعبد الله ، كما أنجبت له بناته الأربع المشهورات : فاطمة ، أمّ خالنا وإخوته ، وحنانه أمّ محنض الغالي اليدامي ، والفقيه المختار بن موسى اليعقوبي ، وهيني أمّ أبي الماح ابن متيلي ، وناصر الدين وإخوته. والرابعة : أمّ حبيب‌الله بن المختار الألفغي صاحب (السم) .

التمكلاوي، والفاضل بن محمد بن بديمان[73]، وأكابر تشمش حينئذ، فأجمعوا رأيهم على أنّ إحدى الحوائج، وهي الزرع تقضى من عند أبي الصّالح[74]، وطبخ عند أبي يَغْدَل، والحلة عند أحمد بن بِدّيْمَان[75] وقيل: عند مَحَمْ صَارْ[76]، وكانوا إذا جاءهم ظالم يطلب حاجةً وأرادوا نكبته قضوا له حاجته عند أهل الفاقة منهم والصّلاح.

---

(73) محمد بن بِدّيْمَان: أبو الماح. ويعرف أيضًا بمحنض اكِد الديمان، وهو أيضًا محمد بن أبي الناس بن محنض بن يعقوب بن اتشفغ مس، له من زوجته احشذ، الماحي، وبه يكنى، وسيد الفال (الفاضل) وعبد الله، أخوهم لأمّ المختار اكِد عثمان جدّ اعثيمنات.

يقول فيه والد بن خالنا في كتابه (كرامات الأولياء): «كان رجلاً جميلاً، معتدل القامة، عظيم الهامة، ربعة القد، آدميّ اللون، منير الوجه، يروق منظرًا ويشوق مخبرًا، حسن الصورة في براعة وبهجة وفصاحة وصدق لهجةٍ وكرم نفس ومهجة في رونق ونور وبسط وسرور ... رجل الدنيا والآخرة ديانة، واستعمال الأمور الفاخرة، متمسكًا بالسنّة عند فساد الأمّة، تضرب به الأمثال في الاجتناب والامتثال، وفي تحمّل الأثقال، وفي فتح الأقفال عن العويص العضال، بهيّ أغرّ، حيي حلو الفكاهة، أديب طيّب طاهر مهيب ... قويّ العارضة، طويل الباع في القضاء والقياس والسماع ... قاضي القضاة ... لا يطغى في خصبٍ، ولا ينسى في الجدب، ولا يئس بكربٍ، ولا يئس لحربٍ، ولا يضيق لقحطٍ ومحلٍ ... ولا يعتريه كسلٌ ولا وني، ولا عجل ولا وهن، ولا فشل ولا شؤم، ولا ملل» توفّي فيما بين نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر، وهو دفين رأس الكلب، قرب إِنْدِيْغْ، على بعد 80كم جنوب انواكشوط.

بعد موته نبتت شجرة على قبره ليست من شجر هذه البلاد، لها ورق مختلف الألوان، ما بين أخضر ناضرٍ وأصفر فاقع وأحمر قان وأبيض ناصع وأسود حالك، هو شفاء من كلّ داءٍ، وعلى الشجرة حيّة عظيمة تمنع جني ورقها إلّا على من كان من نسل محنض بن بديمان.

(74) أبو الصالح أو أبنا الصالح، هو يعقوب ابن أحد من إدابهم، من بني عمّ ناصرالدين. منهم القاضي عثمان ثالث أئمة شربيه من ذريته الشفغ اوبك بن اتشفغ امنهض أمغر بويندحمد بن مهنض الثلاثة. الصّالح، وآسمه الفاضل، وآشتهر بها ويقال له: أبنا الصّالح وأمّه من بني امبج إن الله، ثمّ أبيهم، وهو القاضي عثمان، والأخير اعلكورئذ. قتل القاضي عثمان بانتين أميرًا على جيش الزوايا.

(75) أحمد بن بديمان، ثالث أولاد بديمان وآنعدمت سلالته.

(76) محم صار1050هـ/1640م عن 120 سنة من العمر، من مودبات، وهي أسر آلتحقت بني ديمان آستحسانًا لسيرتهم ونظامهم الاجتماعيّ والسياسيّ.

ثمَّ أتوا ساس بحوائجه الثلاث ، فأنصرف عنهم ، فأتى حيّ إيدَغْبانْ [77] عند « تنياشل » [78] فقال عندهم ، فقال له رئيسهم أحمد : لقد فعلت يا ساس شيئًا عظيمًا، إذ طلبت المغرم عند هؤلاء ، فإنّي أخاف عليك منهم ، ثمَّ إنَّ ساس أعطى الحلة لزفانة ، فأخذته الحكّة في جسده ، وأعلف فرسه شيئًا من ذلك الزرع ، فبينما الفرس يعلف إذ هو ميّت حتف أنفه . فذُعِر ساس حينئذٍ ، وركب وترك الزرع والحلّة وطبغ عند ايدغبان ، وقال لهم : أرسلوا هذا المتاع إلى أهله ، فأرسلوه إليهم .

4 — دور تشمش في مقاومة الغزو الأجنبيّ

فصل ، وبهذا السند أنّ سيد إبراهيم بن سيد أحمد العروسي [79] كانت

· آختلف في نسبهم ، والأشهر أنّهم في الأصل من السودان ، وقيل بشرقهم (شرقة وادان) ، وآندمجوا روحيًّا وثقافيًّا وآجتماعيًّا في الوسط الديماني الذي آنفتح عليهم ، وآستقبلهم بصدرٍ رحبٍ ، لا يعبأ بالفوارق العرقيّة إذَا تكافأت المقوّمات الدينيّة والأخلاقيّة ، ويقدّر عدد موديات المندمجين في تشمش بخمسة عشر نفرًا ، نذكر منهم : محمّ صار ، ومودهمت ، ومو داوبك ، جدّ أهل الطّالب أجود ، ومود مالك الذي تزوّج بايج بنت أبي ميج بن يعقوب بن محنض بن بديمان ، وآسمها فاطمة ، بت علم ، نذكر منهم : ميحن وأولاده ، ومحم صار بن همر صار معدود هنا من أكابر تشمش الصلاح الذين زاموا نهاية عهد أولاد رزك على يد المغافرة .

(77) إدَغْبانْ : في الأصل قبيلة من قبائل صنهاجة ذات الشوكة والشأن ، وهي محسوبة في عداد أنباط القبلة كما أنّ منهم على قول « إنكادس » وإفلاّن وارغيوات ، وجِران وبِران ، موطنهم بئر بن فَنجَه ، غرب بَندكِسم على بعد 3 كلم تقريبًا ، وهم اليوم قليلون في عداد زنت ، من بين (خرز قلادة الأمة) ، المكنى بها عن مجموعة زنت وما آختصت به من تعدد العناصر وتباينها في الأصل والقيم .

(78) تِنياشِل : باللّغة الصنهاجيّة يِنْشِغْ : أي البير ، ذات الحيّ ، نقطة تجمّع وآستيطانٍ لتشمش ، كما كانت معقلاً لأولاد رزك ، وللكنيات منهم خصوصًا ، تقع في الجنوب الشرقيّ من انواكشوط قرب اكِنِت على بعد 80 كلم ، يقول محمد سالم بن الشيخ (الدُّكَجي) نسب البوحسين وطنا لفرع أهل انتشفغ مسام : (من بحر الطويل) :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... وللنفس بين المامنين ثلوج
وهل لي بذات الحيّ عيش ألذّه ... منازلنا قدمًا وحيث نروج

(79) سيد أحمد لعروسي من قبيلة لعروسيين ، قيل : إنّهم من قريش ، وقيل : إنّهم لمتونة ، كما ورد ذلك في رسالة (الروض على أنساب أهل الحوض) ، لسيد عبد الله بن الحاج

إبراهيم ، والأشهر أنّهم من طابخة من قبائل حمير ، آكتسحت بلاد موريتانيا بداية القرن الحادي عشر موجات متلاحقة من الأعراب المنطلقين من جنوب المغرب بقصدون الاستيطان تارةً ، وتارةً للتلصّص ، تستهدف شرائح المجتمع المستضعفة ، ومن أعتى تلك المجموعات وأوسعها آنتشارًا في أرجاء البلد لعروسيون السملاليون ، المنطلقون جلّهم من زاوية « البغ » في أيّام مولاي عبد الملك السعدي .

وتغلغل الأعروسيين في الجنوب مظهر من مظاهر سياسة السعديّين التوسعيّة التي أتت أكلها وحقّقت أهدافها بمساعي السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي 986هـ/1578م 1012هـ/1603م بآحتلال مملكة مالي 1000هـ/1591م. ومن المعلوم أن السعديّين سعوا في إجلاء قبائل العرب إلى الجنوب لإطفاء نار السيبة المستعصية في جنوب المغرب كما شجّعوا الزوايا على آنتداب دعاة إلى غرب الصحراء . فهذه الهجرة المسلّحة إلى الجنوب ، إذن هي على نوعين : منها ما هو إراديّ مبيّت الأهداف ، ومنها ما هو غير إرادي ألجأت إليه الضرورة ...

والعروسيون في موريتانيا مثّلوا دور الرماة في « مالي » ، إلاّ أنّه خانتهم أسباب التنظيم والتنسيق . فتبعثرت جهودهم ممّا أتاح الفرصة للقوى الوطنيّة من صنهاجيّة ومغفريّة للقضاء عليهم . قتل أولاد يونس شنّان بن إبراهيم لعروسي سنة 1040هـ/1630م حسبما ورد في كتاب الحسوة البيسانية . يقول المؤلف : « وكان شنان لعروسي ، قد نزل على ولاتة بطائفته التي هو أمير عليها ، وبنى بها قصبة على عينها التي تسمّى عين النخلة ، وهي شرقي القرية ، وهي أكثر عيونها ماءً ، وجعل عليها حائطًا يدور بها وبالقصبة ، وأخذ يأخذ العشر من أهل ولاتة حتّى من قلال الماء الذي يشربون منه ، ومن التراب البيضاء التي يفرشونها في بيوتهم ، وآسمها عندهم اتراب مَامْ ، وفي الحطب يحتطبونه للطبخ والدفء ، فضلاً عن غير ذلك ، وأضرّ بهم غاية الضرر ، فلمّا نزل أولاد يونس أرض ولاتة آحتالوا له بأن تفرّقوا فرقتين متحاربتين ففرّت إحداهما بعد ما أظهروا من التحارب مع الأخرى ، إلى شنان ، فأدخلهم معه في قصبته وصاروا من جيشه ، فلمّا غزتهم الفرقة الأخرى ، خرج بفرقته إلى قتالهم ، فقطعت فرقته ظهور قومه فهُزموا وقتل هو ... وتفرّق أصحابه ، وهدمت قصبته ... » .

كذلك دارت حروب مدمّرة بين لعروسيين وتاجكانت في نفس الفترة ، كما روى المختار بن أعمر الابييرى في كتاب : أمر الولي ناصر الدين ، عاشها مع شيخه الوليّ الصّالح المحجوب الجكني المتوفّى سنة 1006هـ/1597م ، حتّى أجلوهم من منطقة إزْكيز ثامِشْكط ، وهذه الحروب دارت رحاها قبل شربيه بقليل ، لأنّ راوي قصّتها زار ناصر الدين بقصد آستجلاء أمره ، والتبرّك منه .. ونكبه محاصمة تاجكانت آنذاك قائمة .

ونلتقي بالعروسيين على جبهة ثالثة في الناحية الغربيّة من الإقليم ، وهي التي يحدّث عنها اليدالي في هذا النصّ تحت عنوان : محلّة سيد إبراهيم بن سيد أحمد العروسي ،

ولرفع الالتباس الذي وقع فيه البدالي هنا ، فالصّحيح أنّ المحلّة المذكورة هي محلّة سيد أحمد لعروسي ، لا محلّة آبنه سيد إبراهيم ، فبعض القرائن يؤيّد ذلك ، منها حداثة سنّ باب أحمد المتوفّى بعد آنتيتام بقليل وقت الاختبار المذكور ، وهو في زمن أحمد بن دامان ، وقد طعن في السنّ ، وبدليل أيضا أنّ بندكسعد توفي سنة 1002هـ/1593م ، ورفع والد بن خالنا الالتباس في كتاب كرامات الأولياء بقوله : «وفي سفرهم ذلك كانت القصّة المشهورة بينهم وبين سيد أحمد لعروسي ، كان سيد أحمد العروسي بالاضافة إلى ممارسة الاضطهاد والتلصّص، يصطنع أنواعًا منوّعةً من الحيل ، منها الخزعبلات البسيطة ، واللّغز السطحيّة ، والكهانة المفتعلة ، وحتّى علم الجداول . كان المغافرة يحتّون الهمّة بزعامة أحمد بن دامان للقضاء على محلّة العروسي ، فأنتدبوا الزوايا لتفنيد الجانب الخرافي وإدحاضه ، فنسفوا تلك الأباطيل نسفًا ، وأبطلُوا مفعول محترفيها .

أُنيط هذا الدور الخطير بزعامة تشمش ، أحمد بازيد اليعقوبي ، وباب أحمد وأبو يعدل وآبنا الصّالح ، والحسن دوبك ...

وبعد هذا الإفحام كما يقول والد في كتاب الكرامات ، في أسلوبه الفضفاض : «أقبلت دولة الطلبة ، فتداركهم نصرٌ من الله وفتحٌ قريب ، فسطع نورهم وتمّ سرورهم ، وطابت نفوسهم، وزفّت عروسهم ، وطلعت شموسهم ، وأشرقت بدورهم ، حيث أتاهم بدفعٍ من باطلٍ مرقومٍ بكذبٍ ، فدحضوه بزلال حقٍّ ، وأشنان صدقٍ ، فجعلوه كرمادٍ مرّ به عاصف الرّيح ، وجاء بالحاج والماج ، والداج ، وأماني كاذبة ، وخيالات غير صائبة ... فسوّروه بأصحّ نصوص ، فصار كذي جناح مقصوص ، وكجبان بين سودٍ ولصوصٍ ، لا يميّز بين عموم وخصوص... حاجى بأحاجي فاضحة ، وأدلى بحجج داحضة ، فحجوه بحجج واضحة ، حجج أشدّ على الخصم من الوهم ... فأعربوا له كلّ عبارة ، وأوضحوا له كلّ إشارة ، وبيّنوا كلّ موهم ، وكشفوا الغطاء عن مغالطه ، والقناع عن مخالطه ، وأبطلوا كلّ سفسطته ، فغدًا أسوأ من الضرّة ، وغدوا أعزّ من الدرّة ، وغدًا أذلّ وأرذل من الذرّة . وصار صحبهم في أتمّ فرح ، وهو وقومه في أشدّ ترح ... » وكان أحمد بن دامان قد آستدرجه للانشغال بمهامّ أجلّ وأخطر من آبتزاز أموال الضعفاء وإهانتهم ..

تلك المهام المتجسّدة في مشروع المغافرة الرامي إلى القضاء على ملك أولاد رزك ، ورّى أحمد بذلك في مقولته المشهورة لسيد أحمد لعروسي : سر بنا إلى محلّة لكتيات ، نبدأ بالعامة ونرجع إلى بيضتها» . يعني بيضة العامة : الزوايا .

شاركت محلّة سيد أحمد لعروسي في معركة يوم انتيتام ، مات فيها آثنان من أبنائه ، وأراد أن يجني ثمار بلائه الحسن في هذه الوقعة ، ولكنّ أحمد بن دامان آحتال عليه ، فحال بينه وبين الزوايا ، وأبعده عن المنطقة إلى بلاد التلّ . يقول محمد بن خالنا في نهاية

له حيل يحتال بها ، يجلب بها قلوب الناس ، وكانت له محلّة ، وكان يأتي زوايا القبلة ويفعل فيها ما شاء ، ولا يقدر أحدٌ أن يتعرّض له بشيءٍ حتى طرق ساحة تشمش ، وكان بندكسعد (80) التاشدبيتي ذا وجاهةٍ عند الناس ، ويقبض الزكاة عند أصحابه . ولمّا قدم لعروسي ، خاف بندكسعد أن يفسد عليه أصحابه (81) بحيله .

أمر سيد أحمد لعروسي :«فرجع غضبان أسفًا ، ممّا وقع بهم من ذهاب دولتهم وزوال نعمتهم ، وآختلاف كلمتهم ، فتنازعوا أمرهم بينهم ، فهم في أمر مريج . ثمّ أقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وتفرّقوا أيدي سبأ ، فكانوا نسيًا منسيًّا».

وليس هذا آخر عهد القبلة بلعروسيين ، بل يفهم من نصّ أمر الولي ناصر الدين أنّهم كانوا طرفا في شربيه منحازين إلى المغافرة . يقول اليدالي «إن أهل شربيه نهبوا : حيلاً للعروسيين ، فجدّ أبو الفاضل الكوري في ردّها لأهلها خوفًا من شرّهم ، فأعنف عليه الخضر وأنّبه وهو يقول له : أتردّ مال الكفّار إليهم؟» ، تكفير لعروسيين هنا هو تكفير بني حسّان لا يفيد إلاّ رأيًا ، مبناه ضعف الزوايا ، وآحتكارهم لمقوّمات الدين ، حتى أصبح نحلةً طبقيّة . يفهم من هذا النصّ أنّ العروسيين مازالوا متواجدين في القبلة في أواخر القرن الحادي عشر ، وأنّهم مازالوا على درجة عالية من القوة والخطورة ، بحيث يخافهم أهل شربيه ، كما نستشف منه توتر العلاقات بينهم وبين الزوايا في تلك الفترة ، ولم يكن هذا آخر عهد القبلة بهم : من صولاتهم تلك التي وقعت في عهد أحمد سالم ولد إبراهيم السالم بالمدروم قرب المذرذرة قتل فيها قائد الحملة ... يقول العلاّمة المختار بن المحجوبي 1395هـ/1975م في نظم التاريخ :

وفشت ما بدا بها من بؤس فيه وفيه قد قضى العروسي
وجيشه قد ساءه الإياب فيه وفيه نابت النياب

(80) بندكسعد أو إن دَكسعد، آشتهر بالصّلاح في عصره ، توفي سنة 1002هـ/1593م حسبما هو مكتوب على ضريحه ، وهو من قبيلة تاشدبيت ، أي أهل التاسديت . تقول الأسطورة : إنّ جدّهم خرج من وادان ونزل بتيكماطين يومه ذلك ... وهي تنتسب إلى الشرف ، أهمّ بطونها : أولاد المختار ، وأولاد المصطفى ، وأولاد محم ، وأولاد العمّ ، وأولاد أحمد .

(81) أصحابه هم : لحمته ، أي الغارمون له من أزناكه ، منذ تغلّب المغافرة ، أصبحت تؤدّي هذا المعنى إلاّ ما كان من إطلاق أزناكه على ادوعيش بما في الكلمة من محامل الاعتزاز والشهامة .

وكان أبو زيد اليعقوبي (82) وآبن خالته باب أحمد (83) ساكنين

(82) أبو زيد اليعقوبي ، هو أحمد بازيد ،علمًا المتوفى فيما بين سنة 1040هـ/1630م و1050هـ/1640م ، والتاريخ الأوّل هو المعتمد غالبًا . وهو أحمد بازيد بن يعقوب بن ايال بن ابهنضام ، أحد الخمسة ، ينتمي إلى اعيدالل بن عمر بن حسان بن محمد بن مختار بن عقيل بن معقل بن عتاب بن محتب بن محمد بن علي بن عبد الله .

هذا ما أثبته علماء الأنساب من الزوايا ومن غيرهم ، مثل أحمد بن خالد الناصري في كتابه : طلعة المشتري ، وهكذا أثبته أيضًا لمجيدري ولد حبيل ، وهو محمد بن حبيب الله بن الفالل بن اتشفغ موسى ، المتوفّى فيما بين 1202هـ/1787م و1206هـ/1791م في منظومته أنساب بني يعقوب الجامع ، فأورد النسب هكذا : ابهنضام بن محمد آبن يعقوب الجامع بن سام بن اعبيد الله بن أعمر بن حسان بن مختار بن محمد بن معقل آبن محمد بن موسى المراج بن محمد بن جعفر الأمير بن محمد إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب . كما أقرّه من بعده حرفًا بحرف محمد الخضر بن حبيب بن المكي في كتاب : المفاد على نظم ألفاظ خليل ، للشيخ محمد المامي ... وكذلك أثبته بهذه الصيغة محمد سالم بن أبي المعالي بن محمد آبن عبد الله بن أبي المعالي المتوفّى في 17 رمضان سنة 1395هـ أكتوبر عام 1975 . اطردت هذه المسألة عند علماء من غير اليعقوبيّين مثل بابكر بن احجاب الديماني 1322هـ/1904م . يقول في نظم أنساب تشمش :

فمن قريش هؤلاء النفر ديال يعقوب مهنض أمغر
وهكذا ابهنضام ايضا نسبا لجعفر الطّيار عنهم نسبا

وكذلك الشيخ محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري 1270هـ/1853م ، أثبت نسب بني يعقوب إلى حسّان في كتابه : الحسوة البيسانيّة في الأنساب الحسّانية يقول فيه : وذلك أنّي سمعت من الشيخ العالم الطّالب عبد الله بن الحاج محمد العلوي يذكر غير ما مرة أنّ خامس أولاد حسّان المتقدّم ذكرهم آسمه : اعبيد الله ، وهو الجاري على أكثر ألسنة الناس ، وهو جدّ إديقب من تشمش من زوايا المغرب الأقصى .

وجميع النصوص المرجوع إليها هنا مخطوطات ، لم تصحّح ولم تطبع .

اشتهر أحمد بازيد بالصلاح والولاية والخوارق ، تجدها كلّها مفصّلة في كتب كرامات الأولياء العديدة والتي لم يقدّر لها أن تطبع بعد ، مثل كتاب محمد والد بن خالنا ، وسيد أحمد بن آسمه : ذات ألواح ودسر ، وأحمد بن احبيب : كتاب الأعداد وسلّم العلم والآداب ومجموعة بني يعقوب بشعبتيها : إديقب وأهل باركلل ، تكوّن جسر آتصال وآلتحام بين الزوايا وحسّان ، بحكم أنسابها وسياستها الخاصة ، أنيط بها دور تاريخيّ بالغ الأهميّة في المجالات الحيويّة من تعمير الأرض بحفر الآبار في المناطق المعزولة ، ورفع الظلم ، وخدمة المعرفة بنشر الثقافة الدينيّة والعلميّة ، وبما تمتاز به من بذل الندى ، وكفّ الأذى ، وحسن السمعة .

(83) باب أحمد هو : محنض بن يعقوب بن ديسان ، زامن أحمد بن دامان ، توفي بعد انتيام

— فصل

في محنة الزوايا بسيد أحمد العروسي

ومحلّة العروسي هذا هي التي أخذ أحمد بن داماان لمّا رجع العروسي مفحمًا من عند آبني الخالة (87) ، ففتح بها لكتيبات سنة أربعين بعد الألف ، وهي وقعة انتيتام المعروفة .

وكان العروسي قبل ذلك قد جاء بمحلّته تلك يريد بها الزاوية ، وقال له أحمد آبن داماان : سرْبنا إلى حلّة لكتيبات ، ونرجع إلى الزوايا . ولمّا فتح لكتيبات طلب العروسي أحمد بن داماان بإنجاز ما وعده من شأن الزوايا . فقال له التروزي : ما صنعت بك إلاّ خيرًا ، وجدتك تريد أن ترمي فعيّنت لك من ترمي .

فلمّا آنقطع طمع العروسي من شأن الزوايا ، رجع العروسي إلى التلّ ، وقتل له ولدان في وقعة انتيتام .

— فصل

في الحرب بين المغافرة وأولاد رزكْ ، وكان السبب في وقعة انْتِيتام أنه لمّا وقع يوم النّيش (88) بين المغافرة وأولاد رزكٍ ، وقتل فيه

(87) آبني الخالة : أحمد بازيد وباب أحمد ، أمّاهما أختان ، من ذلك قول الشاعر الحساني مشيدًا بالهكاريات :

الهُكَاريـــات خـــلاوْ إعـــجب خـــلاوْ بَازيـــد أبـــابْ أحمـــد

وأمّ باب أحمد هي فطيمة ، وأمّ أحمد بازيد هي خديجة ، بنتا أحمد الهكاري ، المعروف بلذي العيادة .

(88) إنّيش إحدى وقائع حرب أولاد رزكٍ ، وهذا الاسم يطلق على موضعين : النيش الواقع غرب بنشاب على بعد 40 كم تقريبا ، والنيش الثاني المسمّى بوخزامة ، هو الذي تكرّر ذكره في الشعر الحساني والفصيح ، تغزّلاً به آعتبارًا ، يقول امحمد بن الطلبة في احدى قصائده في بحر (الخفيف) :

صاح قف وآسترح على صحن جال سبخة النيش هل ترى من جمال

ويقول في غيرها معتبرا ، (الخفيف) :

(أوحش النيش بعد أتراب جُمْل ولقد كان آهلا معمورًا)

امهيليين [89] بن عيسى رجع اولاد رزكٍ إلى أهلهم ، وكان لكتيبات ومن معهم من أولاد رزكْ عند تِنْياشل ، وأولاد بوعلي ومن معهم عند تِيلماسْ [90] ثمّ غزت أولاد رزكْ ورؤوسهم أولاد بواعلي وغيرهم نحو أهل الشرق ، فأغاروا عليهم فغنموا أموالاً جزيلةً، ثمّ مرّت كتائب أولاد بواعلي وغيرهم غانمين بلكتيبات عند تِنْياشِلْ ، فكانوا كلّما مرّت كتيبة من الغانمين سقت وسيقتها من تنْاشل التي عندها لكتيبات .

فإذا سقت آجتازت نحو أهلها عند تيلماس ، ثمّ تأتي أخرى فتسقي وسيقتها كذلك ، ثمّ أخرى كذلك ، بحيث لا يلحق بعضهم بعضًا إلى أن مرّت آخر كتيبة من أولاد بواعلي وهم ثلاثون ، فتعرّض لهم لكتيبات فقتلوا الرجال ونهبوا وسائقهم ، فغضب أولاد بواعلي من ذلك غضبًا شديدًا ، حتّى ألجأهم الغضب إلى أن مالؤوا المغافرة على لكتيبات ، فأرسل محمد بن عيسى [91] للمغافرة بذلك ، وأهدى لهم كثيرًا من الزرع الخالص وجيّد اللباس وطبغ كبل وهو نوع منها جيّد ، فلمّا أتتهم النذر والهدايا نهضوا حيئذ للكتيبات وتركوا أولاد بواعلي ، فرحلت لكتيبات حيئذٍ ومن معهم من أولاد رزكْ [92] داوين خائفين من عسكر المغافرة ، فتلاحقت أولاد رزكْ

---

(89) رئيس أولاد بواعلي ، بيت السيادة في أولاد رزكٍ ، ووقعة (اليش) التي مات فيها دارت قبل انتهام بقليل .

(90) تيلماس ، وقعت بها إحدى غزوات شربه ، تقع جنوب شرقي انواكشوط في تاركه على بعد 50 كم تقريبا . كانت بها إحدى وقائع شربه في عهد إمامة القاضي عثمان. وجاء ذكرها في الشعر العربي والحساني . ذكرها المختار بن چنكي في نظمه لأمر الولي ناصر الدين حيث يقول :

والمسلمون سلموا وغنموا ... ومات بعض مغفر وآنهزموا

مثل آنهزامهم بترنلاس ... وذاك هو يوم تيلمّاس

وذكرها الشيخ محمد المام في خاتمة نظمه لاشيخ خليل فيقول :

وتمّ عرضه على الأعيان ... كالعالم الاكديجي الرباني

أنيخت عنده بتيلماس ... في الصيف والجمل ذو أخماس

(91) محمّد بن عيسى ، أخو امهيلين بن عيسى ، رئيس أولاد بواعلي ، وهم رؤساء أولاد رزكٍ .

(92) من معهم من أولاد رزكٍ يعني : أولاد عائد الذين خلفوهم في القيادة ، والرحامين ، وأولاد عبد الواحد الذين ضرب عليهم المغافرة المغرم .

وادارگت عند انتيتام ، فكانت الوقعة المشهورة هناك ، على أولاد رزگ ، سنة أربعين بعد الألف ، كما تقدّم ، وذلك حين توفي أحمد أگْد المختار .

فصل ، ولمّا رحلت لكتيبات داوين من المغافرة قاصدين انتيتام ، تحيّرت تشمش في أمرها ، وتشاورت جميعها ، (ج) فمنهم من رأى الرجوع عن أولاد رزگ لئلاّ يحضروا معهم في الهرب من المغافرة ، ومنهم من الرأى عنده الرحيل مع أولاد رزگ خوف محلّة لعروسي ، وهو باب أحمد ومن رأى رأيه ، ولمّا بلغ الزوايا أنّ لعروسي رجع إلى التلّ بمحلّته قال لهم باب أحمد : لا تخافوا إذن من لعروسيين .

ثمّ تفرّقت تشمش [93] لمّا رحلت لكتيبات ، فآلتحقت بنويديمان بايدغهمد [94] ، وآلتحقت بنويدمس بتندغة بني يدن أبج [95] وهم منهم قبل ، والألفغيون بايدﭬج [96] ، وبنويدّام [97] من بني يعقوب بالسوداني

(93) يفهم من هذا النصّ ومن غيره من وثائق تاريخ تشمش أنّ علاقتهم بلكتيبات كانت طيّبة ، ومتينة ، يبرهن على ذلك الذعر الذي أصابهم بهزيمة لكتيبات وتفرّقهم أيدي سبأ بعد وقعة انتيتام .

(94) إيدَغهُمّد، من بني علي التونكلي من أوائل سلاطين بني ديمان ، من أمرائهم المشهورين : علي التونكلي ، ويحيى التونكلي ، وسِربِلْ وأحفاده : مَتحن ، وحبيب، وابهم .

(95) بنويدن ابج التندغيون : ويدن ابج هو يحيى بن مهنض سمّته أمّه ، بنت يداج اكديرغه ، بأخيها يحيى بن يداج ، وهو بطن من بطون تندغة . وتطلق عليه تسمية أخرى هي التي آشتهرت وتداولها الناس حتّى حلّت محلّ الأخرى في الاستعمال (حلّة أربعين جوادا) . والأقرب إلى الصواب أنّهم آلتحقوا بايدودنبج ، حسبما ورد فيما تقدّم ، أنّ يدمس أخو مالك .

(96) ايدَﭬج ، بنوعم إيدَﯖ إجمَلْ ، نزحوا إلى بلاد مالي وآندمجوا في السودان .

(97) بنويدام ، هم ايدودام ، بطن من بطون ايديقب ، من غير ذرّية ايبال فهم بنو عم ايديقب ، والاسم المتداول هو ادودام ، من أهل يِدْنهض بن ابهنضام ، ونسبهم هو بنو يدام بن أعمر بن ابهنض بن يدبهنض بن ابهنضام بن يعقوب الجامع .

بكر چوب[98] وبنو يدن ابياج ، منهم بايديجب[99] .

5 ـ فصل ، تشمش في ظل حكم المغافرة

ولمّا فتحت أولاد رزك ، جاء أولاد دامان ، أحمد ، وعتام ، وَسَاسَ إلى تشمش ، وآلتمسوا منهم المغرم ، فأبوا وقالوا لهم : لابدّ أن تعطوا لكلّ واحد منّا جملاً غرامةً ، وعتّام هو المجد في ذلك ، ثمّ آنصرفوا عنهم ،

---

(98) السوداني بوبكر إچْبُوب هو رئيس قبيلة (مصار إچْبُوب) ، كانت تسكن بروبت ، ثمّ نزحت إلى الجنوب ، حتّى حلّت باچيولوف من سينغال ، فأسّسوا القرية المعروفة اليوم بآسم إنْكَلْ .

(99) إيدَيجْبَ ، (أولاد التائب) تقول وثيقة آكتشفها العلاّمة المختار بن حامدن في ولاتة : أنّ جدّهم تاب في ادَيْلبَ من تاجكانت ولاتة ، وهو جدّ قبيلة « إتْوَاسِيغ » الذين مازالوا موجودين في النعمة .

تنقسم ايديجب إلى صنفين ، ايديجب « الأوائل » ، منهم: إيدَكَخْمَاظ ، وإِنْدَغُهْد ، اگْبُون وغيرهم . وايديجب « التالين » الذين دخلوا على الأوائل فأكرموهم بالرئاسة ، منهم أهل اتشفغ ابريهم، وايداچفغ (أهل الشيخ القاضي) ، وازماريك . ودور ايديجب التاريخي ملحوظ ومرموق على جميع الأصعدة ، سلميّة وحربيّة ، ثقافيّة وآقتصاديّة وسياسيّة .

كانت لهم القيادة العسكريّة والسياسيّة في حرب شربه على الجبهة الشرقيّة مع ابدغريب وبارتيل ، ومن معهم من الزوايا . خاضوا حرب الفتح الإسلامي في فوتة ، ففتحها المختار اگد عبد الله ، وعندما شق المغافرة عصا الولاء للإمام ناصر الدين ، جابهوهم في معارك دامية ، منها يوم آمدير ، ويوم تيفظاظ 1085هـ/1672م وهو يوم فتح الطلبه الثاني وآخر أيام شربه ، مات فيه الإمام المختار . أمّا في المجال الثقافي فكانت لهم اليد العليا فيه ، بمدرستي أهل الكحلاء وأهل الصفراء اللتين اتحدتا فيما بعد في مدرسة واحدة أنشأ المدرسة المذكورة المرابط حبيب الله بن القاظي ت 1241هـ/1825م ومؤسسها الحقيقي هو أحمد باب المتوفى سنة 1723/1136 كما جاء في ترجمته في كتاب (فتح الشكور) الاداجففي مؤلف الكتاب المشهور (معين حيلل على شرح الشيخ خليل). تخصّصت هذه المدارس بتدريس القرآن وعلومه والفقه المالكي، وحافظت ايديجب على مركزها الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، والدينيّ، فسجت شبكة علاقات طيّبة مبنيّة على التقدير والاحترام مع أصحاب السلطة، وهم البراكنة، على غرار ما فعلته تشمش مع الترارزة، وآستقام الأمر للمجموعتين على أساس توزيع عرفي للسلطة بينهما سلطة زمنيّة مبناها التغلّب والقوّة المادّية، آحتفظ بها بنو حسّان، وسلطة دينيّة معنويّة، تبنّاها الزوايا وآحتكروها على غيرهم حتّى أصبح الدين ميزةً طبقيّةً .